الكائن الأعلى

مطلق الكمال والوجود

في الفلسفة... والعلم... والدين

عبد الله أبو رواش

دار التراث للطباعة والنشر
[illegible]
[illegible]



الكائن الأعلى

مطلق الكمال والوجود

في الفلسفة ... والعلم ... والدين

عبد الله أبو دواش

دار الوزان للطباعة والنشر
٤٢ صلاح الدين .
ت ٢١١٣٢٠ إسكندرية



الإهداء

إلى الله الذى منه وإليه كل شىء أرفع ما جاء فى هذا الكتاب مع أكف الضراعة أن يجعله عملا خالصا لوجهه أرجو به رضاه وعفوه وتوفيقه وأن يهدى به من يقرأه إلى صراطه المستقيم .

العبد الخاضع لعزة الله وجلاله
عبد الله أبو رواش يوسف

١٧ رمضان سنة ١٤٠١
الموافق ١٨ يوليو سنة ١٩٨١



تصدير الكتاب ..

بقلم الأستاذ الدكتور / عبد الله حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمداً يليق بجلاله ويحيط بكماله .. والصلاة والسلام على محمد وآله خير من عرف مقام ربه الأعلى فكان من أشد الناس لله خشية وتقوى مع ما كان له من القدر الأسمى والجزاء الأوفى ..

وبعد ...

فإن الإنسان بفطرته يهتدى إلى ربه وخالقه . وبفكره وعقله يدرك شواهد قدرته وآثار نعمته .. وبقلبه يستشعر أسرار هدايته وبدائع رحمته .. لكن المكلف عليه أن يعرف الواجب والجائز والممتنع فى حق الله سبحانه وتعالى ولو بدليل جملى يخرج به من التقليد إلى التحقيق وليكون إيمانه

إيماناً راسخاً قوياً قوامه المعرفة واليقين .. والله سبحانه وتعالى يجب أن يكون متصفاً بكل كمال .. منزهاً عن كل نقص .. لكن بعض الكمالات التي يجب أن يتصف بها الله قد قامت الأدلة العقلية أو النقلية عليه تفصيلا وبعضها قد قامت الأدلة العقلية أو النقلية عليه إجمالا .. والموضوع دقيق بلا جدال . والقضية شائكة لاشك في ذلك . وإذا كان للمؤمنين فيها حظ الطمأنينة واليقين فان للملحدين ضلالهم وشكوكهم وأباطيلهم وهم في غيهم يعمهون .. وما على المسلم الغيور إلا أن يستل سيف الحق ليدحض به الباطل ويلوذ بالحجة والبيان ليدفع زيف الافك والبهتان .. ويستمد من نور الله قبسه يبدد بها ظلمات الشك ويجلي منار الحقيقة والإيمان .

وما أن تصفحت أصول كتاب .. « الكون والكينونة ومطلق الكمال والوجود » .. حتى أحسست أن أديبنا الشاعر الأستاذ عبد الله أبو رواش الذي قدمت له من قبل ديوان « اللحن الأزرق » قد امتشق حسام الحقيقة . ولبس دروع

الفكر وانضوى تحت لواء الفلسفة وقد خلع عنه أردية التوانى ولغة العواطف والمشاعر ليكون جندياً فى معركة التوحيد .. يتصدى لزيف المغرضين وحجج المبطلين .. ويدحض بالدليل والبرهان كل زيغ وشرور وبهتان .

ولقد حشد المؤلف لبحثه من المصادر والمراجع ما جعلنى أشعر أنه يعد العدة لرسالة جامعية للحصول على إجازة علمية متقدمة فى قضية الالوهية . . ذلك أن موضوع الكتاب قد اشتمل على الكثير مما تفتقت عنه قرائح الفلاسفة منذ أقدم العصور . . وما أسفرت عنه بحوث العلماء من نتائج ما انتهت إليه آراء المشتغلين بعلوم الدين من فكر مستفيض وتفسير عميق لما جاء به وحى السماء فى هذا الموضوع .. وكان لزاماً على الباحث أن يستوعب ويستقصى ويمحص ويدقق ويحلل ويعلل ويوازن ويرجح ويجتهد ويستخلص .. وذلك جهاد لا يقدر على تحمله إلا صبور متمرس وجهبذ ثقة ..

انى إذ أسعد بتقديم هذا الكتاب إلى قراء العربية أود

ان تتاح الفرصة لترجمته الى لغات شتى ليستمتع به المؤمنـون بالله فى كل مكان . ومابقى إلا أن أقدم عظيم ثنائى وتقديرى للاستاذ عبدالله أبو رواش على اختياره هذا الموضوع الشائك وما بذله من جهد فى تقديمه داعياً الله سبحانه أن يجزل له من الثواب مايكافىء جهد المخلصين وأن يمد فى عمره ليثرى المكتبة العربية بالفيض الغزير من مؤلفاته القيمة التى لا يتصدى لمثلها إلا أولو العزم من شيوخ الـكتاب .

دكتور / عبدالله حسين

بسم الله الرحمن الرحيم

سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير . هو الأول والأخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم . هو الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم إين ما كنتم والله بما تعملون بصير . له ملك السموات والارض وإلى الله ترجع الامور . (١ — ٦ / سورة الحديد) وصلاة وسلاماً على من أوتى معجزة المعجزات محمد النبي الامي المبعوث رحمة للعالمين .

وبعد

فإنه لا تأويل ولا تعقيب على ماذكرنا من الآيات واستقراء لكتاب الوجـــود المنشور الصفحات .. المتجدد الآيات الواضح الدلالات .. واستلهاما من حصاد الفكر الإنسانى علما وحكمة .. تاريخا وأدبا .. كتبت هذه الخواطر والافكار واقدمهـــا في تواضع جم إلى محبي الكلمة النابتة فى حقل البحث عن الحقيقة آملا أن تروق لهم ..

والله الموفق للصواب

عبد الله أبو رواش

رمضان سنة ١٣٩٩ ه
أغسطس سنه ١٩٧٩ م

كلمة لا بد منها

إن الصراع من أجل الحياة هو سر الحياة الذى لن ينتهى حتى تنتهى الحياة ذاتها و تزول السموات والأرض .

وحول هذه الحقيقة اختلف الناس .. فمن قائل إن الحياة تجدد نفسها وإن الأرض والسموات باقية ولن تزول ..

ومن قائل إن السموات والأرض موقوته بزمن حدده خالقها . وأصحاب الرأى الأول يرون أن الكون طبيعى وأن المادة لا تفنى ولم تخلق من عدم معتمدين فى ذلك على قوانين علمية بحتة ..

وأصحاب الرأى الثانى يقولون بأن هذا الكون الهائل العظيم خلقه الله بكلمة منه .. ويستدلون على ذلك بأدلة قاطعة لا يجد الشك إلى نفيها سبيلا . ومنها الفلسفات التى قامت على براهين .. والكتب المقدسة التى ثبت صحة نسبتها إلى الله على أساس علمى .

ومما لا مرية فيه أن الماديين قد قرأوا كثيراً من النظريات

العلمية والفلسفية والتاريخية المتصلة بواقـــع مذهبهم الذى يسايرونه منذ لقنوا تلك المبادىء واستوعبوها بالصورة التي وصلتهم عليها .. وأنها استحوذت على أفكارهم فانجذبوا إليها وتهافتوا عليهـا تهافت الفراشة على النار .. حتى أكاد اجزم بأنه لا مكان لغيرهـــا من الفلسفات والمعتقدات فى شريط مخيلتهم التسجيلى . كما وأن محو هـذه الأفكار لم يعد أمراً سهلا إلا عن طريق عملية غسل المخ التى استعملها معهم دعاة المـادة فى ظروف كانوا فيهـا مهيئين لذلك . وهذه العملية لا يلجأ إليها الناس إلا فى حالتين ضروريتين :

فى حالة الحرب للحصول على معلومات عن العـــدو من جواسيسه .. والحالة الأخرى هى التى يستخدمها اعداء البشرية لبث الأفكار المسمومة ضد القيم والمبادىء الإنسانية السامية التى يربأ دعاة الإصلاح بأنفسهم أن يتخذوهـا وسيلة لنشر مبادئهم وأهدافهم الإصلاحية ..

ولهذا فليس هناك من سبيل إلى مناقشة الماديين والملحدين

المتشككين في قضية من أهم وابرز القضايا التي يتصدى لها العقل الأنساني عندما يبلغ قمة نضجة وهي قضية البحث عن حقيقة الألوهية . لاسيما وان الماديين يتهمون غيرهم بالسذاجة لتفكيرهم فيما وراء الطبيعة من أسرار .. ولو كان مرد هذا الأتهام في نظرهم راجعا إلى أن البحث فيما وراء الطبيعة بدون هدف لا جدوى له اسلمنا لهم بما يقولون .. ولكان الأمر عند هذا الحد مقبولا .

ولكنهم يقررون صراحة أن الكون طبيعي .. ونسألهم : كيف عرفوا أن الكون طبيعي ؟ .. والإنسان لم يصل بعد ومنذ آلاف السنين إلى ذرة مما يحتويه هذا الكون .. وحتى لو عرفوا ذلك ..فمن أوجد هذه الطبيعة ؟. وقبل أن تجرنا التساؤلات المتعددة التي انفتح منها هذا القمقم لرهيب والتي لم يأتي دورها بعد في أبواب هذا الكتاب نسألهم : هل عند هذه المرحلة ينتهي تقدم العلم . أم هي خطوة من الخطوات في مسيرته التي لا يستطيع العقل البشري أن يحدد نهايتها ؟ ..

وقبل أن نتوه في بيداء الأفكار . أو تلفنا دوامتها بغير طائل يمكننا أن نسأل سؤالا يوفر علينا ما يمكن أن يضيع من عمرنا هباء فى تساؤلات لا أجابة مقنعة عليها . نعم نسألهم :ما الذى سبق الآخر . التفكير الدينى أم التفكير العلمي؟

والجواب من غير لجاج :. التفكير الدينى هو أول خطوة نحو الحقيقة تلاها بعد آلاف عديدة من السنين التفكير العلمي. وكان التفكير العلمى وليد التفكير الدينى. فهو الذى انجبه واوحى به . فلما شب عن الطوق ناصبه العداء . ولنذكر دعا ذلك الحادث الخطير الذى جاء بعد ظهور الإسلام وقيام حضارته على أساس من العلم والمعرفة ، قام على أساسها نفر من علماء المسلمين يبحثون ويدرسون ويقدمون للعالم بذور العلم وأسسه التى ما أن خاضت البحر الأبيض المتوسط وسهول آسيا حتى ثار أصحاب الديانات هناك فى وجهها مدعين أنها ن أعمال السحر وهمزات الشياطين ، واندفعوا يقاومون العلم. فازدادت مأساة الصراع الإنسانى ولكن بصورة جديدة فى هذه المرة . إلا أن الفكر الإنسانى لم يتراجع . وإنما دحر

هؤلاء المبطلين . واندفع يحقق الاعجاز العلمي ليثبت أن العلم ضرورة من ضروريات الحياة . وأن الدين الحق لا يتعارض مع العلم الذى هو من حصاد الفكر الانسانى .

ومن هذا المنطلق أصبح رجال الكهنوت أعداء لرجال العلم حتى نادى بعض المفكرين المتعصبين للعلم فى أوروبا بجعل العلم بديلا للدين

وجاء رائد المدرسة الإجتماعية الفرنسية الفيلسوف سان سيمون فرأى بأن العلم والدين كليهما ضرورى الانسان . وظل على ذلك حتى حذر من رفض الدين باسم العلم وهو يفارق الحياة قائلا : « ليس هدف العلم وراثة الدين . ولا هدف الدين ايقاف تقدم العلم . إنما تجمعهما أرضية الوفاق والحوار لأن كليهما لازم وضرورى لتحرير واسعاد الأنسان » . وهو ما أخذ به كارل ماركس نفسه حينما شعر أنه الحق فاعترف فى آخر أيامه بوجود الإله ضمن قوله : « إن الالحاد قد عاش وقته أنه تعبير سلبي لا يعنى شيئاً بالنسبة للاشتراكيين الاصلاء . . أن المعنى لديهم ليس هو انكار الإله . وإنما تحرير الانسان »

وبهذا فلن نفقد الأمل فيمن يستطيع أن يخلع رداء التعصب جانبا ليحرر نفسه من هذا السجن الرهيب ويطل من نافذة الحياة الحرة على هذا الوجود الهائل فيقرأ سطورا من كتابه ربما هي وحدها تنير بصيرته وترد إليه صوابه .

فليمض معنا في السيرة على صفحات هذا الكتاب ..

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علم بالقلم . علم الأنسان ما لم يعلم والصلاة والسلام على من أوتى جوامع الكلم . النبي الأمي محمد ﷺ .

أما بعد

فهذا مدخل إلى كتاب « الكائن الأعلى مطلق الكمال والوجود » أردنا به أن نجلى بعض ما وردفيه من مصطلحات ونفسر الأدلة الفلسفية أو العلمية كما ورد أيضاحها في مراجع الكتاب أو الموسوعات العلمية الأخرى .

ألا وإن الفكر والعلم قد تعثرا ردحا من الزمان دون الوصول إلى الحقيقة المطلقة . حقيقة الذات الإلهية والتي اسمينا هذا الكتاب بها تحت عنوان « الكائن الأعلى مطلق الكمال والوجود »

ولم يكن الأنسان مخلوقالأكثر مما خلق له . وهو أن يكون خليفة في الأرض التي هي جزء من ملك الله . وتحقيقا لذلك وهبه الله آلة العقل التي سخر له بها ما استخلفه

فيه . فيكشف له عن بعض الحقائق الكونية وفي مقدمتها حقيقة الألوهية عن طريق الالهام تارة وعن طريق التأمل في المخلوقات تارة أخرى مصداقا لما ورد في الأثر « كنت كنزاً مخبياً وأردت أن أعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني ».

وهكذا توصل العقل البشرى عن طريق الاستدلال المنطقي من ناحية، وعن طريق تأمل مخلوقات الله من ناحية أخرى إلى إثبات وجود الله . وقد أقام الفلاسفة البراهين والأدلة لما توصلوا إليه من حقائق كونية أفضت إلى تفسير الوجود والكائن المطلق وما كان يكتنف ذلك من غموض .

ومن بين هؤلاء الفلاسفة توما الأكوينى الذي التقى مع الفيلسوف الاغريقي أو المعلم الأول أرسطو في إثبات وجود الله بخمسة براهين وأن اختلفا في الجوهر . وقد اتفقت براهين فيلسوفنا الاكوينى مع المنطق الرياضى . وهذه البراهين الخمسة هي :

١ — دليل الحركة الذي يثبت ويؤكد محرك أول لا يتحرك وهو الله .

٢ ويقوم الدليل الثانى على أن الموجود المتحرك يحتاج إلى علة فاعلة وينتهى إلى أن الله هو العلة الأولى .

٣ – وينشأ الدليل الثالث على فكرة الواجب والممكن والمجتمع . . ويخلص إلى أن الله واجب الوجود .

٤ ـ أما الدليل الرابع فيعتمد على فكرة الغائية . . وأن نظام الوجود يقتضى موجوداً عاقلا يوجه الأشياء إلى غايتها .

٥ ـ والدليل الخامس يقوم على ما وصف العقل به الذات الالهية من صفات سلبية تنفى عنه ما لا يليق من ناحية الكمال المطلق ، وثبوتية تعتبر من مظاهر هذا الكمال . . فهو ليس بجسم ولا هو مركب . . بل وجوده ذاته . . وبذا تسقط فكرة وحدة الوجود . . وصفاته الثبوتية ضربان . أحدهما يعبر عن الذات من حيث هى مثل الكمال المطلق . . والخير المحض ، والوجود اللامتناهى . . وأنه واحد لا شريك له . .

والآخر يعبر عن صلة الله بمخلوقاته كالعلم والقدرة والعدل والعدل .. وهي تختلف عن صفات المخلوقات المماثلة أشد الاختلاف . . أى أن الله ليس مصدر النظام وكفى . . ولكن

« الله خالق كل شئ » و « هو بكل خلق عليم » .. وليس له مثيل فى الحس ولا فى الضمير . . بل له « المثل الأعلى » و « ليس كمثله شئ » ..

وقد وردت بعض المصطلحات العلمية فى هذا الكتاب نود أن نشير إليها أملا فى أن لا يتعثر قارئ فى فهم مضمون أى فكرة عرضناها فيه .. ومن هذه المصطلحات :

* محض تعنى الشئ الخالص من كل شئ الذى لا يشاركه طبيعته ولا تكوينه أى شئ آخر ..

* المطلق هو القائم بذاته والذى لا بداية له ولا نهاية .. وهو يغير ولا يتغير . . وهو عكس النبى الذى ينسب إلى ما هو أكبر منه أو أصغر .

* واجب الوجود : هو وحده القديم الأزلى .. الذى لا يحتاج فى وجوده إلى موجد لأن وجوده من مستلزمات ذاته . . ولذلك لا يجوز أيضاً القول إنه أوجد ذاته . . لأن قولا مثل هذا يدل على أنه كان متقدماً على ذاته وهذا محال .. وهو ثابت إلى الأبد . . لا يزيد ولا ينقص

ولا يطرأ عليه تغيير ما .. ولذلك فالله دون سواه هو واجب الوجود..

وأخير كلمة جوهر حيث اختلف الفلاسفة والعلماء في أن الله جوهر ..

فالعلامة ديكارت يرى أن « الله هو الجوهر الحقيقي » .

وقال الرئيس ابن سيناء « معنى كون الله جوهراً ، أنه الوجود لا في موضوع .. والوجود ليس بجنس » . وهذا ما اجتمع عليه جمهور الفلاسفة الأقدمين حيث رأوا أن الجوهر هو ما ليس في موضوع أو بتعبير آخر هو القائم بذاته .

ولكن ابن سيناء أوضح ذلك بقوله: « الجوهرية ليست من المقومات لأنها عبارة عن عدم الحاجة إلى الموضوع ».

ولقد رأى توما الأكويني أن « الجوهر يطلق على اللامتناهي . فجوهر المتناهي مفتقر في كشفه إلى اعراض » أما جوهر اللامتناهي فمستغن في وجوده ومستغن أيضاً في

في كل شيء غير الوجود » .

ولعل هذا يكفينا مؤونة فيا يصادفنا من تعبيرات تحتاج إلى بعض وضوح ..

من أوجد الكون

مما لا شك فيه أن أي نوع من الفكر توصل إليه الإنسان فى أى عصر من العصور كان ثمرة لزرع سابق فى حقول الفكر الإنسانى على مدى عصور التاريخ ومراحله .

وإذا أردنا أن نعرف البذرة الأولى لهذا الفكر لما توصلنا إلى ذلك تماماً وإن كنا قد نصل إلى حقيقة أن الفكر كان وليد تأمل الإنسان الأول فيا حوله حتى بدأت الفلسفات تشق طريقها وربما الديانات أيضاً أرضية أو إلهية .

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقول لمن ينكرون الديانات: على رسلكم .. فان ما أوتيتموه من فكر ليس إلا حفيداً لأفكار سابقة وصلت فى النهاية بأصحابها إلى سر لم يكن

واضحاً أمامهم ولكنا اكتشفوه بالبحث والتقصي والنظريات الفلسفية التي استندت إلى براهين صحيحة أثبتت أن لهذا الكون موجد.

فاذا كان الماديون بفكرهم المقتبس والقاصر اعتقدوا أن البحث في وجود إله لهذا الكون ضرب من المحال فضلاً عن أنه يصرف الأذهان عن العمل الجاد.. ففي هذا افتئات واختلاق لا صحة لوجوده.. ومرده إلى أن فكرهم يلزمهم بهذا القالب التقليدي الذي يعتبر التحرر منه ارتداداً عن المذهب.. وإلا هم ينكرون الدين ومعظم المفكرين، فلاسفة وعلماء الذين أثبتوا حقيقة الإلوهية كانوا من أهل الديانات اليهودية والمسيحية والإسلام.. والنظريات العلمية والكونية والاجتماعية والاقتصادية كانت كلها ثمرة للنواة التي وضعها هؤلاء العلماء السابقين.

وإذن فلا مندوح من أن نجرد أنفسنا من كل تعصب وندخل إلى محراب الحقيقة على بصيرة مثل أولئك العلماء الذين

عاشوا عاكفين على إثبات نظريات جالت بفكرهم .. فتوصلوا في النهاية إلى غاياتهم ..

ففي الأثر : « الحقيقة ضالة المؤمن أنى وجدها .. فهو أحق بها » .

ومن الفلاسفة القدامى الذين حثوا على السعي وراء الحقيقة المفكر الصيني بوذا الذي قال: « لتثق بالحقيقة وإن كنت غير قادر على إدراكها فتظن حلاوتها مرارة وتهرب منها .. ثق بالحقيقة لأنها أجمل مما هي .. وما من أحد يستطيع السيطرة عليها .. إن إدراكها لا يكون إلا بالإيمان .. فآمن بها .. واحي فيها .. الذات هي خداعة تتداعى حلماً جميلا ثم يضمحل .. أما الحقيقة فتجلب الصحة والطمأنينة .. الحقيقة باسم .. الحقيقة سرمدية ولا خلود إلا فيها .. لأنها هي وحدها تبقى إلى الأبد » .

وها هو ذا ديكارت أحد فلاسفة العصر الحديث يدعو إلى البحث عن الحقيقة لأنها هي أول الغايات وآخرها بالنسبة

للانسان فيقول : « خير السبل لنعرف كيف ينبغي أن نحيا هو أن نعرف أولا من نحن . . وما العالم الذى نعيش فيه . . ومن هو خالق هذا الكون » .

ومما هو بدهي وثبت علمياً وفلسفياً أن لكل موجود موجد ولكل صنعة صانع . . وأن الإنسان في تاريخه الطويل لم يعثر على من هو أسمى منه فكراً وأرجح عقلا حتى ينسب إليه إيجاد هذا الكون الهائل وما اكتنفه من كواكب وأفلاك ونجوم وما يراه الإنسان فى كوكبه من جميل الصنعة وعبقرى للفن في مشاهد الطبيعة التي لم تمتد يد إنسان إلى صنعها كالجبال وما تخللها من مشاهد تسحر الألباب . . وكالبحار وما احتوته من حياة مكتظة بالمخلوقات العجيبة والأعماق الرهيبة والألوان المتباينة . . وكالنباتات والأزهار والثمار المتعددة الأشكال والزاهية الألوان . . وكالطيور المتنوعة الفصائل والمختلفة الأصوات والأشكال والأحجام . . فضلا عن العوالم الأخرى التى لم يمتد بصر الإنسان ولا

بصيرته إليها . وما أروع الإعجاز القرآني الذي نوه عن ذلك بقول الله تعالى : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون .. » أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وأن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون » .
(٧ - ٨ - من سورة الروم).

ما أشبه اليوم بالبارحة .. بل ما أشبه الماديون بالإنسان البدائي حينما عبد الزرع والنيل والشمس والقمر والنجوم .. ثم انتهى به المطاف إلى عبادة أخيه الإنسان المتسلط وقدم وقدم الحرية قرباناً على مذبح المتسلطين من البشر المتألهين .

وشتان بين هؤلاء الماديين سواء منهم من يدينون بالولاء للطبيعة وينتهجون حياة الإنسان البدائي في سلوكهم .. ومن يتخذون من تلك القوالب الجامدة سبيلا للحياة واستعمار الأرض زاعمين أن روح الحياة الحرة والمساواة تكمن في تلك النظريات المحدودة .. ولا فيمن ظلوا على عبادة الأوثان من إنسان وحيوان وجماد وكأنهم لقنوا أدواراً تمثيلية لا يحق لهم

الخروج عن نصها . حيث لم يخرجوا عن حيز الموجودات برغم معايشتهم لعصر بلغ الذروة فى المخترعات وامتطى الهواء وعبر أجواز الفضاء إلى عوالم أخرى شاسعة البعد .. وكان من بينهم من أسهم فى ذلك . . وبين من عرفوا الحقيقة ويدركون وهم ينطلقون مع موكب العلم الصاعد أنهم إنما يهدفون إلى تحقيق أمر من أوامر الله الذى سخر لهم ما فى هذا الكون مشيراً إلى ذلك بقوله تعالى :

« يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان » . (٣٣ - الرحمن).

وقوله جل شأنه : « فلا أقسم بالشفق . والليل وما وسق . والقمر إذا اتسق . لتركبن طبقاً عن طبق . » (١٦ - ١٩ - الشفق)

وهذا قد تحقق بالفعل بصعود الإنسان إلى طبقات الجو العليا واجتيازه إياها إلى القمر . . وهذه من آيات الإعجاز

القرآني التي أنبأت عن هـذا الحدث قبل وقوعه بأربعة عشر قرناً من الزمان . . أوليس هذا بدليل قاطع مانع على وجود صاحب هذا القول وموجده . . وهو الله ؟ ! .

وأخيراً وليس آخراً . . إذا لم يكن هذا الذي ذكرناه يكفيهم للاستدلال على وجود خالق لهذا الكـون فليثبتوا لنـا العكس أو فليتابعوا المسيرة .

الله موجد الكون

كان وما يزال العقل هو الجهاز الذي يبحث به الإنسان عن حقيقة كل شيء حوله ومنه انبثق نور الفكر يضيء له الطريق إلى ما يريد استقصاء كنهه والتعرف على حقيقته

فما بالنا ونحن ننسب كل جهاز توصل إليه الإنسان إلى مخترعه وصانعه فنقول مثلا: جاليليو هو الذى اخترع التلسكوب . . وجراهام بل هو الذي اخترع التليفون . . وماركونى هو الذى اخترع جهاز اللاسلكى . . واديسون هو الذى اخترع المصباح الكهربائى . . ومع أننا لا نستطيع أن نحدد كنه الكهرباء وإن عرفنا أسبابها أو مسبباتها . أفنستطيع أن ننكر موجد الطبيعة لا لنا لم نعرف أسبابها ومسبباتها مع أن العقل جهاز من أجهزتها والحواس أيضاً أجهزة لها وظائف سبقت وظائف تلك الأجهزة التى اخترعها الإنسان .. بل وهى التى بدونها لا تؤدى هذه المخترعات وظائفها . .

وأيضاً أليس العقل هو الجهاز الحساس الذى به اكتشف

الإنسان ما حوله من أشياء وعرف بعضاً من حقائقها . . وبه اهتدى الفلاسفة إلى نظرياتهم التى أصبحت مسلمات حيث انتهت بالبرهنة المنطقية إلى نتائج مقبولة علمياً .

وإذا كان العقل هو كما أسلفنا الجهاز الذى وضع بصائرنا على هذه الحقائق فما بالنا نحاول تقييده ورده عن تأكيد حقيقة الموجد الموجودات . . وما الفرق بين أن نسميه الطبيعة وهى تعنى ما يحيط بالكون ويسيطر عليه وبين أن نسميه الله وهو القوة المطلقة التى نراها فى كل شىء ولكننا لا نستطيع تحديد ذاتها ولا طبيعتها لأن ما نعرف من الكون وما لا نعرف . . ما هو ظاهر وما هو باطن موجود فى حيزها .

وكما أن العقل دخل فى صراع مع كل ما رآه فى الطبيعة أو أحسه ليعرف حقيقته وليأنس إليه . . فإنه جرى شوطاً بعيداً باسم الفلسفة فيما وراء الطبيعة . . وكما أهدى للانسانية خير ما فى الطبيعة بتعريفها بأصولها وقبلنا منه ذلك . . فلماذا نرفض ما جاءنا به عن خالق هذا الوجود الذى كان هو دور

الفلاسفة والعلماء فى هذا الحياة مع أنه قدم لنا القوانين التى تحكم الكائنات .

ولم يكن اعتراف هؤلاء الفلاسفة والعلماء بوجود الله ضربا من الخرافة أو تخدير الشعوب وإنما كانت نظريات علمية قضوا فيها حياتهم دون أن يبتغوا من وراء ذلك جزاء ولا شكورا . .

لقد كان رأيهم فى وجود إله لهذا الكون مبنياً على أدلة عقلية وبراهين منطقية انتهوا منها إلى أن كل شيء يكون فى دائرة البحث يمكن أن يقع تحت أحد أمرين . . أن يكون واجب الوجود أو ممكنا . . فإن كان واجب الوجود فهو المطلوب . . وإلا استلزم الدور أو التسلسل وهذا يصبح باطلا وغير مقبول عقلياً ولا منطقياً . . ولما كان كل موجود نراه له مؤثر أوجده فلا بد أن يكون هذا المؤثر موجود بذاته وليس بمؤثر سواه . . ومن ثم استدلوا على وجود الله المؤثر فى هذا الكون .

وهو ما توضحه آراء الفلاسفة والعلماء فيما بعد ..

فهاهوذا أفلاطون يقرر بنظريته وجود إله لهذا الكون بعد أن برهن على ذلك ببراهين ثلاثة فلسفية وعلمية ومنطقية لا يجد الطعن إليها سبيلا ..

فقد بنى برهانه الأول على وجود علة فاعلة لهذاالكون .. وفي الثاني برهن على وجود علة محركة .. وفي الثالث جعله كعلة غائية حيث يقول : « إن كل ما يوجد بعد أن لم يكن موجوداً لا بد لوجوده من علة مؤثرة فيه وهي لا تؤثر إلا إذا اشتملت على قوة التأثير . . وهو يعني أن ما ينشأ لا يوجد إلا بفعل علة لأنه من المستحيل أن يوجد شيء بدون موجد » .

ويقول : « إن الذى ينتج العلة لا بد وأن يكون خالقاً لها .. وإذاً لا بد أن تكون هناك قوة قادرة على فعل ما لم يكن موجوداً .. ومعنى ذلك أن الموجودات إنما توجد بفعل موجد وهذا يبرهن على أن هذه الطبيعة التي نشاهدها

ويدلنا وجودها عليها تثبت بالضرورة وجود موجد لها .

وأن ما قاله أفلاطون عن وجود علة محركة أوضحه أرسطو فيما بعد حيث تصور العالم كنفس وجسد .. والنفس لا ترى ولكنها تحرك الجسد المرئي .. ولم يكن يقصد النفس الإنسانية ولا الجسد البشرى وإنما يريد ذلك المجهول الذي يحرك كل ما في الطبيعة كما تحرك الروح الإنسان وهو سر غامض لم يصل العلم إلى اكتشاف جوهره .

ويقول أفلاطون في برهانه عن العلة الغائية : « أما حكمته فهي لا نهائية تظهر واضحة في خلقه المتقن الصنع المتناسق حيث مزج عنصرى الماء والهواء بعنصرى التراب والنار لكى يكون جسم الحياة المفعم بالجمال والاتساق ..

هذا وان انجذاب الإنسان إلى الجمال والكمال لما يؤكد تعاطف الإنسان مع غيره من الموجودات التي تسبح في ملكوت واحد بفطرة الله التي فطرهم عليها .. وصدق الله بكلماته التي تعلن الحقيقة المطلقة في قوله تعالى : « فطرة الله التي فطر الناس

عليها لا تبديل لخلق الله » .

وقال بيركلى وديكارت : « إن الأنسجام الوظائف فى الكون يرجع الفضل فيه إلى الله » .

وقال كريس موريش رئيس مجمع العلوم فى نيويورك : « أسباب الإيمان بالحقيقة الإلهيه يعرفها العلماء وتأبى عليهم عقولهم أن يردوها إلى المصادفة » .

وقال العلامة جيمز جينز : « المشاهدات الرياضية فى الكون تثبت أنه لم يوجد مصادفة » .

وقال سير آرثر ادنجتون: « تفسير الكون بالحركة الآلية أمر لا يسيغه العلم الحديث » . بمعنى أن للكون محرك .

وقال كانت : ضميرى ينبئنى بوجود إله للعالم » .

وقال نيوتن : « النظام الذي يتجلى فى الكون يدل على وجود إله له » .

وقال اينشتين : « إن دينى يشتمل على الإعجاب المتواضع

بتلك الروح العليا غير المحدودة التى تكشف فى سرها عن بعض التفصيلات القليلة التى تستطيع عقولنا المتواضعة إدراكها .. وهذا الإيمان القلبي العميق .. والإعتقاد بوجود قوة حكيمة عليا نستطيع إدراكها خلال ذلك الكون الغامض يلهمنى فكرتى عن الإله » .

ويعتقد أن سبنسر ينكر وجود إله لهذا الكون بينما كلامه يقرر وجوده . إذ يقول : « المجهول هو تلك القوة التى لا تخضع لشىء فى العقول لكنها هى مبدأ كل معقول وهى المنبع الذى يفيض عنه كل شىء فى الوجود » .

وقال دارون : « إن الأنواع تفرعت من جرثومة الحياة التى أنشأها الخالق » .

وقال والاس : « إن الكون لا يمكن أن يكون قد وجد بغير علة عاقلة .. ولكن إدراك هذه العلة يعلو فوق إدراك العقل البشرى » .

وأخيراً .. إذا كان للعقل الالكترونى موجد فكيف

لا يكون العقل الإنسانى موجد .. هذا هو ما يمكن التعرف عليه فى الفصول القادمة .



الذات الإلهية ..

انتهينا فيما بسطناه فى قضية الإلوهيـة إلى أن وجود الله واجب حتمى يقضى به وجود هذا الكون الذى قالت البداهة قبل البحوث الفلسفية أن كل موجود له موجد .

وهنـا تبدأ قضية الذات .. ومن المعروف بداهة أيضا أن كل موجود له ذات أو جوهر .. ولـكن ليس من الضرورى أن يحدد جوهر الذات الإلهى تحديد تعيين متصور أو يرى .. ذلك لأننا كثيراً ما نرى آثار أشياء غامضة لم نستطع تعيين جوهرها برغم أننا نرى آثارها .. فالكهرباء كما ألمعنا فيما مضى نرى نورها وأسباب وجودها ولكنها لا نعرف سرها الحقيقى وهى من خلق الله الذى هو نور السموات والأرض .. هذا بالنسبة لشىء مادى ملموس ..

وكذلك الروح نرى آثارها فى الحياة وتأثر الحياة بها من وجود وعدم ولكننا لم نعرف حتى الآن جوهرها الذى أشار إليه العلى القدير بكلماته : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . (٨٥ - الاسراء)

وان ذات الله لا تخضع لتقويم الفكر الانسانى لها ولا لمقاييس العلم مهما بلغ من التقدم . . ونفس العقل لم يكتشف الإنسان كنهه مع أنه هو المحرك الأول لكل أعضاء الجسم وكل ذرة فيه تتلقى منه الأوامر بالحركة وبالكلام . . فما بالنا ونحن لم ندرك هذا المحسوس المرئى أن ندرك ذات الله جوهراً وكنهاً . . وهذا فعلا ماقال به الفلاسفة والعلماء على مر عصور التاريخ وفى مقدمتهم الفيلسوف الرياضى فيثاغورث اذ يرى أن الله واحد لا كالاحاد . . فلا يدخل فى العدد . . ولا يدرك من جهة العقل . . ولا من جهة النفس فهو . . فوق الصفات الروحانية . . غير مدرك من نحو ذاته وانما يدرك بأثاره ، وصنائعه وأفعاله . . فلا الفكر العقلى يدركه ولا المنطق النفسى يصفه . .

وانما إذ نورد هنا بعض ما قاله هؤلاء الفلاسفة فى هذا الموضوع ليس إلا لتنوير من لم يؤت قسطاً من الفكر يحاول الغوص فى بحر لا يستطيع أن يصل الى قراره حينما يقول : هذا خلقه الله . . فمن وراء وجود الله ؟ ! ونختار من الفلاسفة المحدثين الذين ولدوا مع فجر النهضة وشبوا فى ظلال العلم الحديث .

فالفيلسوف الانجليزى جرين يرى أن الله ذات مشخصة .. بينما يرى ليبنتز أن الله ذات . . ويقرر الرئيس ابن سينا ان واجب الوجود ومن لم يتعين لا يوجد .. وقد ثبت بالدليل وجوده فهو إذن متعين .

وهؤلاء لم يقولوا بأنه تعيـــين مرئى ولا متصور .. فلم يصل الذهن الى تخيله ولا التفكير فى تصوره بكل ما يمكن هو أن يرى آثاره وتأثيره فى ملكوت السموات والأرض مما خلق ويخلق . .

ويقول عالم الذرة أدنجتون نتيجة لما توصل اليه من علم لا متناهى برغم أنه يخدع البعض بأنهم على مشارف المتناهى

فيه . . يقول : « العالم غير المنظور يوحى بهيمنة الذات الالهية عليه ».

كما قال العالم الصوفى التفتازانى : « الله ليس جنسا لكنه حقيقة نوعية بسيطة ولذلك لا بد من تعين يميزه . وقد يكون هذا التعين عدمياً » . .

وقد عقب الإمام محمد عبده على كل هذه الآراء بما يوضحها ويضع النقاط على الحروف بقوله : « يجب ألا يكون فى وصف الله غلو فى التجريد ولا دنو من التحديد » .

وهذا يعنى أن لله ذاتاً معينة لا يعلمها إلا هو وحسبنا أن نقف عند ما عرفنا وما سبق أن نوهنا به وأن لا نتعدى ما أمرنا به وما ليس لنا به علم فهو سبحانه الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية كما قال فى محكم كلماته : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ».(٣ - سورة الحديد) وقوله : « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » . (١١ - الشورى) وقوله : « وكان الله بكل شيء محيطا » (١٢٦ - سورة النساء) وهذا يجرنا إلى البحث عن الأين . . أو مكان وجود الله وهو ما نلتقى به فى الباب التالى .

أين الله ؟

على ضوء ماتقدم من القول بأن لله ذاتاً ولذاته تعين نجد سؤالا يطرح نفسه علينا وهو : وأين يوجد الله ؟ .. وهذه مشكلة من السهل أن تقبل العقول المستنيرة الرد عليها طبقاً لما سبق أن أوضحه الفلاسفة والعلماء بالنسبة لذاته تعالى .. فإنه من المحال أن نقول بوجوده في السماء وهو خالقها ولا في الأرض وهو موجدها كما أشار إلى ذلك بعض العلماء بقولهم : « إنه أسمي من أن تحده الفوقية أو التحتية أو اليمينية أو اليسارية » .

وزيادة في الإيضاح أو برهاناً على ذاك نقول:ـ

مما هو معروف أنه إذا تحدد ذات الموجود أمكن تحديد مكان وجوده .. ولأنه لا تحدد ذاته إلا رؤياه أو لمسه وذلك

باستثناء بعض المخلوقات التي لا ترى إلا بأجهزة غاية فى الدقة كالجراثيم أو الميكروب أو الفيروس تلك التي تملأ الجو ولا نراها ولا نلمسها إلا على أثر مرض . . وكذلك الالكترونات والبروتونات أو بمعنى أشمل مكونات الذرة حيث لا تثبت في مكان ولا ترى إلا بأجهزة غاية في الدقة . ومن هذا المنطلق نقول . إذا لم نستطع تحديد مكان وجود بعض المخلوقات فكيف يمكن تحديد الأين بالنسبة لذات الله التي لا ترى أو يلمس جوهرها .

لقد جرى الفلاسفة والعلماء شوطاً بعيداً فى البحث عن الأين بالنسبة لله الذى ثبت وجوده برهنة بوجود ما أوجد .. وخرجوا على العالم بحقائق ثابتة لا رأى لأحد كائناً من كان..

بعدها قال أرسطو : « المحرك الأول (أى الله) ليس فى مكان ما لأنه غير جسمى ولأنه ليس في حاجة إلى مكان معين ».

وقال الإمام الغزالي رداً على سؤال الزمخشرى عن معنى

الآية : « الرحمن على العرش استوى ». قال: « إذا استحال أن تعرف نفسك بكيفية أو أينية فكيف يليق بعبوديتك أن تصف الربوبية بأينية أو كيفية ».

وقال جمهرة من العلماء : « الله موجود في كل مكان ظاهراً وباطناً .. فهو موجود في الحالة الأولى لأنه لا يقدر أحد أن يجهل وجوده .. وموجود بالحالة الثانية لأنه لا يمكن لأحد ان يعرفه كما هو في ذاته ».

وكما قال جل شأنه : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » . (١٠٣ ـ الانعام)

ويرى اسحاق نيوتن ان مكان الله مطلق حيث لا بداية له ولا نهاية .. ويعقب عالم النسبية اينشتين على ذلك بقوله :

« المكان المطلق والزمان المطلق ليس لهما وجود .. لكنهما موجودان فقط إذا وجدت الاشياء والحوادث .. أي أنهما صور للادراكات الحسية » .

وهذا أقصى مايقوله الإنسان بالنسبة للمكان المطلق والزمان

المطلق وهما من علم الله .. إذ ثبت بعد غزو الفضاء أن الزمان
فى الأرض يختلف عنه في الفضاء إذا أن الوقت على الأرض
أسرع منه فى الفضاء . ولتقريب المفهوم الحقيقى لذلك نقول
انه إذا ولد اثنان على الأرض وغزا أحدهما الفضاء ثم مكث
سنين فإنه عندما يعود إلى الأرض يقل عمره عن زميله الذى
مكث فى الأرض نفس السنين . وهـذا مما يرينا أن الله
لم يتحيز بحيز ولم يحد بحد ولم يعين جوهره فلا يمكن أن يحدد
له مكان .

ويستشف الصوفي المسلم العراقى مما قرأ من فلسفات وعلوم
وقرآن أنه وإن كان لكل ذات مكان يتفق ونوعها فانه يمكن
تقسيم الأمكنة بالنسبة للموجودات إلى ثلاث :ـ

مكان للأجسام المادية ويشتمل على ثلاثة أنواع : ذات
الجرم التى تشغل حيزاً وحركتها تستغرق زماناً .. والأجسام
اللطيفة كالهواء والصوت وهذه تحرك بعضها البعض وزمنها
يختلف كثيراً عن زمن الأجسام ذات الجرم ، إذ أن حركة

المادة مهما كانت سريعة فانها تحتاج لزمن أطول كثيرا مما تحتاجه حركة الهواء والصوت .. والضوء ثالثهما أسرع من كل ذلك وليس له خير كغيره مما اسلفنا إذ لا يدفع الضوء بعضه بعضاً كما تدفع المادة مادة أخرى لتحتل حيزها أو مكانها وانما تتداخل الموجات الضوئية معا مكونة موجات مركبة جديدة . والمكان الثانى للأجسام غير المادية أو غير المتحيزة وهو مكان الجن والملائكة والروح .

والثالث وهو مكان الله وهو منزه عن الأبعاد والمسافات والتحديد والأزمنة تنزيها تاما وفيه يلتقى كل ما لا ينتهى .

واذا كان هناك من أنواع الضوء الأشعة غير المنظورة مثل الأشعة السينية وتحت الحمراء والليزر وغيرها لا ترى ولكنها تنفذ فى الأجسام وكذلك الموجات الكهرومغناطيسية التى تنتشر فى الفضاء أو الاثير ولا يمكن تحديد مكان أو حيز لها مع انها مما توصل اليه الانسان عن طريق العلم .. فكيف يجوز ان نطالب بتحديد مكان لله خالق كل شىء . . والذى قال : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من

علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم » (٢٥٥ - البقرة).

وقوله تعالى : « وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه ومايعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولافى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » (٦١- يونس)

وقوله تعالى : « ألم تر أن الله يعلم مافى السموات وما فى الأرض مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلاهو معهم اين ما كانوا . . ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة . . ان الله بكل شىء علـــيم » (٧ - المجادلة) .

وقوله تعالى « الله نور السموات والأرض » (٣٥- النور) وليس لهذا تأويل أقرب من القول بأن الله فى كل مكان. ولماذا تقتنع بما ذكرنا فى الأبواب السابقة ؟ . . هذا ماسوف ندلل عليه فيما يأتى بعد إن شاء الله . .

لماذا الإله ؟

عندما يعتد الإنسان بفكره ويسفه أفكار غيره ممن سبقوه يجب أن يتذكر دائما أن الفكر فى تطور مستمر وان أجيالا تأتى بعده ستنظر في فكره مثل نظرته فى فكر من سبقوه ولهذا ينبغي على من يرفض افكار غيره أن يقـــدم البراهين المثبتة لرأيه سواء كانت هـذه البراهين اجابة لسؤال مضـاد لفكره أو مدحض لبعض ماجاء به هذا الفكر .. وأن يعلم مسبقا أن من سيأتون بعده سينقضون فكره أو يرفضونه . وهكذا الحياة دواليك .. يوم لك ويـــوم عليك . ونظرة موضوعية على نشأة الفكر الدينى منذ العصور الأولى لوجود الإنسان تعطينا الدليل تلو الدليل على ذلك .

فالإنسان الأول نزع إلى التنفيس عن غرائزه تارة بالهرب مما يخيفه وأخرى بالرجاء في مرضاته إلى أن توصل لعاطفـة الاجلال والتقديس لمـا يعتبره مصدرا للخـير والشر معا .. ففى وادى النيل قدس المصريون القدماء النيل باعتباره مصدراً

كبيرا من مصادر الحيـــاة لهم إذ رأوه ينبت الزرع ويحيي الضرع ويروى الإنسان بل ورأوا أن العكس صحيح .. فما من بقعة اقفرت من الماء إلا وهلك من فيها وما فيها فاعتبروا ذلك نقمة لبعد الإله عنها .

كما عبدوا الشمس حيث شعروا بما يكمن فيها من اسرار لسموها فيما بين وجودها وغيابها .. حيث ينبعث منها الضوء الذى ينير الحياة .. والحرارة التى تنشر فيهـا الدفء .. بل وسبقوا العالم قبل توصله إلى الأجهزة الحديثـــة التى عرفتنا ماتقوم به الشمس من أمداد النبات ببعض مقومات الحيـاة وكذلك الإنسان والحيوان كتبخير مياه البحار التى تعود الى الأرض ماء للسقيا والري .. وكانضاج الثمار ومد الأشجار بالغذاء اللازم .

وعلى هذا النمط عبدوا كثيرا من الحيوانات والطيـور والهوام لما تحمله من أسباب الخير والشر .

وفى بابل ألهوا الشمس والقمر والأرض .. وعبـــد

السومريون الشمس والقمر والنهر وتموز إله الزرع .. وفى الهند قدس الناس قوى الطبيعة .. السماء بما فيها .. والأرض وما عليها من جبال وأنهار وأشجار والجنس .. وفى فارس عبد الناس الشمس واتخذوا آلهة الخصب والنار والطبيعة .

وبهذا يكاد الناس فى كل مكان يتفقون فى تصوراتهم الأولى للآلهة .. وبتطور الفكر الإنسانى أصبحت هذه الآلهة فى نظرهم آلات مسخرة فتشككوا فى قدرتها على النفع والضر وراحوا يبحثون عن الإله الحق .

فهذا أخناتون فى مصر يدعو إلى الوحدانية واثبات ان الله ليس شيئاً من تلك التماثيل ولا المعبودات ولا الملوك وانما هو خالق كل شيء .. وكانت دعوته إلى توحيد الآله نقلة إلى فكر جديد مستنير أطل به الإنسان على مشارف الفلسفة .. وفى مناجاته لإلهه الواحد يقول : « أنت الإله الأحد ولا شبيه لك .. ليس كمثلك شيء .. خلقت الأرض حسبما تهوى أنت وحدك .. خلقتها ولا شريك لك .. خلقت الإنسان والحيوان

وكل طائر يحلق بجناحيه وكل صغير وكبير وكل ما يمشى ويطير .. وفرت لكل انسان مايحتاج اليه .. وجعلت لكل مخلوق منهم أياما محدودة .. أنت تعطى الحياة للجنين فى احشاء النساء . . وانك تصنع من النطفة الرجال .. حينما تغيب فى أفق السماء تظلم الأرض وتبدوا وكأنها ميته ومتى يصبح الصباح تشرق متألقاً فى الأفق » .

ثم كانت النقلة الثالثة التى ظهر فيها الفلاسفة يقربون للعقل من حقيقة الألوهيه والتى ظهر فيها الفلاسفة الرياضيون الذين بنوا نظرياتهم على براهين علمية يدركها العقل كما بينا فى الفصول السابقة .

وفى عودة أخرى الى سر اتخاذ آلهة نجد الإنسان فى البيئة الإجتماعية أتخذ الإله بدافع غريزى كما نوهنا لعله دافع الفطرة التي فطر عليها من لدن موجده .

وهو فى المرحلة الثانية يدلنا على انجذابه إلى القطب حينما يبحث عن أصل وجوده وما يسميه الإنسان فى العصر الحديث الله .

وبعد وضوح الرؤيا على هذه الصورة المقنعـة جاء دور الإلهام السماوي . . وجاءت الديانات بعد ذلك تترى مسفرة عن وجه الحقيقة الذى لا يغلفه أدنى شك فعرف الإله إسما وصفات ودل تصدى الديانات للانحرافات البشرية بعد ذلك وشروق شمسها فى كل مكان تأكيداً حقيقياً لنهاية مراحل البحث عن الله وللاتجاه بالبحث إلى مايكتنفه ملكه العظيم من اسرار .

وهكذا عرفت الإنسانيـة الإله الحق فى نهـاية انطلاق وبالوحى الإلهى حيث قال الله تعالى لنبى رسول من انبيائه « سيدنا موسى عليه السلام : « انى انا الله لا اله إلا أنا فاعبدنى واقم الصلاة لذكرى » (١٤ - سورة طه) .

كما قال لعيسى عليـه السلام : « ياعيسى بن مريم أ أنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله . . قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق . . ان كـنت قلته فقد علمته . . تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك انك انت علام الغيوب ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به أن أعبدوا الله ربى وربكم

وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ».

(١١٧/١١٦ ـ سورة المائدة)

وها هو ذا سيدنا محمد ﷺ يأمره ربه بأن يعرف الناس بالإله الواحد في قوله تعالى : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد . . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ».

(١١٠/١٠٩ سورة الكهف)

وكما تحدى القرآن الكريم فصحاء العرب وبلغاءهم أن يأتوا بسورة أو بآية مثل آيات القرآن وهم قد أوتوا البيان فإنه يتحدى العلم الحديث قبل أن تظهر بوادره فيقول لأهله: « قل أرأيتم أن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به » (٤٦ ـ سورة الأنعام).

فهل يستحق العبادة غيره أو يأله الناس لسواه وهو رب كل شيء وقوله الحق على لسان كل نبي وكل مؤمن به نجد

يقول: «قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون»

(١٦٤ - سورة الأنعام)

فلمن يكون الدين ؟.. وهل من برهان ؟.

ما هو الدين . . ولماذا ؟

أندفع الإنسان بشيء داخلي في نفسه لا يعرف كنهه إلى البحث عن من يدير هذا العالم وينظم شئونه ويخضعه لمشيئته بعد أن عرف امكانات نفسه وقدراتها التي ظلت وستظل محـــدودة نسبياً إذا ما قيست بما يكتنفه هذا العالم المنظور منه والغامض وقد أوضحنا فيما مضى لماذا أله الإنسان كثيراً من ظواهر الطبيعة الحي منها وغير الحي معتقدا أنه يملك ضرة ونفعة وأنه اكتشف أخيراً أن لا حول ولا قوة لبعض تلك الألهة التي كان معظمها أصما لا يسمع ولا يرى ولا يعقل .. وأنه عندما توصل الإنسان عن طريق الفلسفة أولا وعن طريق الوحي الإلهي ثانياً إلى الحقيقة نقل ولاءه لتلك الالهة إلى الإله الحقيقي الذى أثبت الفكر السوى والعلم الحديث صحة وجوده وتلاقيا معا في ملتقى طرق البحث عنه .

فالذين أعتقدوا أن الطبيعة تملك مصادر الخير والشر وانها تستحق التقديس لم يخرجوا عن مفهوم من أعتقدوا أن الانسان

القوى جدير بالتأليه لأن القوة تصلح درعاً للخير أو للشر . .
والذين ألهوا العقل رأوا أنه يملك مفاتيح الخير والشر . .
وكلهم كان يبغى الوصول إلى الحقيقة مصداقاً لقوله عز
وجل : « إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى » .

ولما توصل الإنسان إلى من بيده كل ذلك نقل ولاءه للحري به
وهو الله الذى يدين له كل ماخلق بالعبودية .

وقبل أن يصل العلم إلى هذه الحقيقة بأكثر من ألف سنة
بل بثلاثة عشر قرناً أعلن الله الإنسان الذى استخلفه فى أرضه
بها فى كلماته التى لم يعرف أحد ما تكنه من أسرار إلا بعد
التوصل إليها .

وكما أن الحقائق الكونية ظلت مغلقة على الافهام ردحاً
من الزمان فإن مفهوم الدين لم يكن سهلا تحديده . . هل هو
مجموعة عواطف سامية نحو من بيده الحيـــاة والموت والنفع
والضر . أم هو جماع الأخلاق والشرائع والقوانين التى تنظم
الحياة فى الأرض فترضى الخالق والخلق . . أم هو منظم

الغرائز الذى يوجهها للخير ويحميها من الشر ربما تنطبق عليه هذه التسميات بل ويضمها جميعاً . . ومع ذلك فإذا قلنا أنه الولاء المطلق لله رب العالمين الذى ندين له الخلائق جميعها لأنه موجودها ومبقيها بالحياة وسائلها بعد ذلك ومحاسبها عما فعلت خيراً أو شر فإننا نتفق مع من سبقونا فى البحث حول مدلول الدين ومفهومه . .

وها هى ذى أقوال بعضهم نوردها هنا للحقيقة والتاريخ . .

لقد عرفه الفيلسوف الألمانى هيجل بقوله : «إن الدين حد المعرفة الذى تدركه النفس المحدودة المتحيزة من ماهيتها انفس مطلقة غير متناهية » .

وقال عنه الفيلسوف اسكندر باين : « ان الدين عاطفة يكونها الانفعال المادى، مقروناً بالخوف وحساسية الخضوع المعظمة » .

ويرى هكسلى أن الدين اجلال المثل الأعلى من الأخلاق ومحبة العمل على تحقيقه فى الحياة .

ويقرر ادوارد كايرد أن الدين هو أسمى ما وصل إليه الإدراك العقلي قائلا : « ان دين الإنسانية تعبير عن أقصى حالة عقلية يعلن بها السكون « هو المعنى المجمل لما يبلغ إليه إدراك الإنسان من معرفة لحقيقة الأشياء » .

وإذا استخلصنا مما مضى أن الدين هو المنهج الذى يوجه سلوك الإنسان والجماعة إلى الخير ويحول بينهم وبين الشر أمكننا معرفة غاية الدين وأصبح التقارب بيننا وبين الفلاسفة الذين سبقونا بأجيال عدة في وجهات النظر يشبه العلاقة ما بين نورين أحدهما ينبعث عن بعد والآخر يبدو عن كثب .

فالفلاسفة رأوا الله بنظرياتهم الفكرية ونحن رأيناه بالوحى السماوى فكان إلينا أقرب منهم . . واستئناساً بآراء الفلاسفة وتأكيداً لما نقول لا نرى مندوحة من ذكر بعض آرائهم في هذا المجال . .

يقول الفيلسوف الألمانى كانت : «ينحصر الدين فى اعتقادنا بأن كل واجباتنا أوامر إلهية » .

ويقول كارايل المستشرق الفرنسى : « ان الدين هو الشىء الذى يعتقد الإنسان فى صحته إعتقاداً عملياً .. هو الشىء الذى يحسه الإنسان بقلبه .. ويأخذه على أنه حقيقة واقعة فيما يختص بعلاقاته المتعددة بهذا الكون المستعمق فى الغموض والأصيل فى الاستغلاق .. وفيما يتعلق بواجباته فى هده الدنيا ونهاية هذه الحياة » .

وفي حوار هادىء مع أولئك الذين ينكرون الدين ويأبون أن يخضعوا للغموض الذى غم عليهم أن يروه حينما أهالوا تراب الألحاد على فطرتهم فوأدوها .. إلى هؤلاء ومن يلوذون بهم نقول لهم تعالوا معنا إلى كلمة سواء .

من ذا الذى خلق كل ماينعم به الإنسان من طعام وشراب وغيره مما يحتاج إليه في هذه الحياة .. ومن ذا الذى يملك أسباب القوة جميعاً ؟ .. أهو صاحب السلطان من حاكم أو غنى أو طاغية متسلط فى مكان محدود فى هذا الوجود الهائل ؟.. أم هو الطبيعة وما تحتوى عليه في باطن الأرض من حمم تتفجر

براكين أو مياه تفور طوفاناً . . أو ما يضمه فى الآفاق والسموات من نجوم وأفلاك تتساقط جزئياتها نيازك أو تصطدم سحبها فترسل الصواعق إلى غير ذلك مما يحتويه هذا الملكوت العظيم الذى لم ولن يستطيع كائن من كان إلا الله أن يعرف حقيقته ويحيط بما فيه من أسرار . فلماذا إذن نأبى أن ندين لله ونرضى أن ندين لبعض خلقه الذين أوتوا السلطان والأمر مجازاً إذ السلطان الحقيقى والأمر لله الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يدركه الضعف والشيخوخة ولا الموت والفناء .

ومن هنا أما يجدر بنا أن نصحح دعوى أن الدين إن كان حقاً فلماذا لم يستطيع تحقيق الأمن للناس جميعاً وأن يقيم العدل بينهم ؟ ذلك أن الدين مبادىء وقيم ومثل ومنهاج مطروح للعمل بمقتضاه وليس إنساناً حتى نطالبه بذلك . . وكل مافى الأمر أن الفرق بينه وبين النظم التى استقاها أصحابها ممن سبقوهم وكان من بينهم الفلاسفة والمصلحون والأنبياء والمرسلون

ورجال القانون والمذاهب المختلفة أن تنفيذه لا يخضع لمراقبة أصحاب سلطان يخشى بأسهم العاجل فى هذه الدنيا ولكنه يخضع للضمير الذى نشأ على اليقين بأن الملك لله فى الأرض وفى السماء الذى لا إله غيره وتصديقاً لقوله تعالى : « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل » . (١٠٢ ـ سورة الأنعام)

وقول رسوله الصادق الأمين ﷺ : « أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وهل يكون الاذعان خوفاً ورجاء إلا لله المستحق الحمد والثناء والخشية والأمل دون سواه . . وسبحانه من قائل : « قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً . . قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم « قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » (١٦ ـ الرعد)

وشتان بين ولاء مطبوع وآخر مصنوع إذ الأول دائم في نفس صاحبه لا يتحول ولا يضعف بينما الثاني متغير مع السلطان والهوى .. وهو ولاء الماديين الذين ظنوا أن الحياة طعام وشراب ولا يتوفر إلا بالنظام الذي يعيشونه ولو رجعوا إلى الوراء لوجدوا أن الإنسان عاش ملايين السنين بدون هذه الأنظمة الحديثة وكان يجد مطعمه ومشربه وملبسه ومأواه ولم يمت جوعاً أو خوفاً ..

وبعد فلنقرأ سوياً قول الله تعالى: «يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض فأنى تؤفكون» (٣ - سورة فاطر) .

وإلى عباد الطاغوت سواء كان الشيطان الذي يدلهم عن طريق الحق الذي أخضعهم لمشيئته وإرادته التي سرعان ماتزول لأوهى الأسباب .. وإلى من ألغوا عقولهم فعبدوا بعض مظاهر الطبيعة التي هي من خلق الله نسوق قول الحق تبارك وتعالى : « والذين اجتنبوا الطاغوت ان يعبدوها وأنابوا إلى

الله لهم البشرى » .

وقوله تعالى : « وله ما فى السموات والأرض وله الدين واصبا .. أفغير الله تتقون » . (٥٢ - سورة النحل)

وقوله : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون » . (٨٣ - آل عمران)

وقوله : « ان الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم » . (٤٠ - يوسف)

وأخيراً فإنه لن يصل إلى حقيقة الدين إلا من وجد الإيمان إلى قلبه سبيلا .. والإيمان ثمرة من ثمار البحث الخالص عن الحقيقة وهو كما قال الرسول الخاتم صلوات الله وسلامه عليه : « ليس الإيمان بالتمنى .. ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل » .. ولنستمع معاً إلى قول الشاعر الهندى الذى يهتف وسط طوائف متباينة العقائد منادياً أهل الإيمان الصحيح بقوله :

إذا الايمان ضاع فلا حياة ولا دنيا لمن لم يحي دينا

ولكي نعرف ذلك يقيناً علينا أن نخطو الخطوات التالية :ـ

حول الخالق

تمشياً مع فكر الماديين الذين لا يؤمنون إلا بما يرون ولا يثقون إلا بما يجربون ونحن نعقد حواراً حول نشأة هذا الكون وكيف وصل إلى هذه الصورة القريبة من الكمال شكلا وموضوعاً .. نبدأ من حيث انتهى العلم بأبحاثه إلى أصل هذا الوجود وكيف تكون ثم نرجع إلى الوراء حيث بدأ الفكر الإنسانى يبحث عن حقيقة ذلك المجهـــول الموغل فى الغموض .

فإذا قال الماديون ان الكون أزلى ولا موجد له فإن العلم يقول لهم على النقيض من ذلك .. ان الكون لا يمكن أن يكون أزلياً حيث أن الحرارة دائماً فى حالة حركة وانتقال بطرق مختلفة سواء بالاشعاع أو بالحمل أو بالاتصال من الأجسام الحارة كالشمس أو باطن الارض أو جسم ساخن إلى الاجسام الباردة التى لم تكتسب حرارة بعد ومنها سطح الارض والماء

والهواء.. الخ.. بهذا لا يمكن أن يكون الكون أزلياً وهو دائم التغير والتقلب بين الحرارة والبرودة.. بل والزوال إلى حد يقرب المادة من الفناء.. فهذه أجسام تنصهر.. وهذه مياه تتبخر.. وذاك هواء يحترق. وإذن فلا بد من البحث عن الازلية فى غير هذا الكون.

كذلك وان العلم أثبت أن عمر هذا الكون خمسة بلايين سنة وهذا يعنى أنه ليس أزلياً.

وشهد شاهد منهم هو العالم الروسى مندليف الذي انتهى فى أبحاثه عن خواص العناصر الكيميائية بعد ترتيبها فى جدول ترتيباً دورياً طبقاً لتزايد أوزانها الذرية -أن العناصر التى تقع فى قسم واحد تؤلف فصيلة واحدة متشابهة الخواص.. ولا يمكن أن يكون ذلك لمجرد الصدفه ولكن وراء ذلك ترتيب وتوجيه لا يمكن تجاهله وان لم يكتشف وجوده الحسى.

وقد رأى علماء الفلك أن الأرض وجدت بعد نشأة الكون ومنذ بليونين سنة من السنين.. والبرمائيات وجدت بعد ذلك..

ووجدت بعدها الثدييات، وكان بعدها خلق الإنسان. هذا هو ما جاء في كتاب تاريخ الأرض لجورج جامبو.

وقبل هذه الأبحاث العلمية وما توصلت إليه من نتائج مقبولة عقلا أشار القرآن الكريم في آيات عدة إلى نشأة الكون وبعض تطوراته فجاء في الآيات ٣٠، ٣١، ٣٢ من سورة الأنبياء قول الله تعالى «أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون * وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون * وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون».

والتي عرفت فيما بعد بنظرية السديم أو الانتشار والتي تعني أن السماء والأرض كانت كتلة واحدة عند بدء الخلق ثم انفصلت عن بعضها مكونة تلك العوالم في السماء والأرض.

وكذلك قوله تعالى: «قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين * جعل

فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم » . (٩-١٢ سورة فصلت)

وقوله تعالى : « خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم » . (١٠ - سورة لقمان) .

وقوله جل شأنه : « الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى علي العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون * يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون * ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم * الذى أحسن كل شيء

خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين * ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون». (٤-٩ سورة السجدة)

وهكذا بدأ الخالق بإيجاد سر الحياة وهو الماء الذى خلق منه الحيوات جميعها .

والإنسان هو الكائن الوحيد الذى عرف هذه الكائنات وجرى شوطاً بعيداً فى البحث عما وراءها من أسرار التكوين والغاية من وجودها والنافع منها والضـــار وبعض أسرار حياتها أو موتها . . فكيف عرف أصل وجوده والغاية منه . . فى منتصف القرن التاسع عشر تقريباً بدأ العلماء والباحثون يفكرون فى حقيقة أصل الإنسان وسر وجوده . . وراح الرحالة يجوبون الاقطار فيرون سلالات متباينة تنتمى إلى هذا الكائن العاقل المفكر ولكنهم لم يصلوا إلى أكثر من الظواهر التى تحيط بحركاته وسكناته وألوانه ولغاته . . إلى أن توصل الإنسان إلى علم الحفريات فراح ينقب عن أقدم السلالات التى

ينتمي إليها هذا المخلوق العجيب .. ومن هنا بدأ العلماء يختلفون على بعضهم .. فأخوان الصفا يقولون بوحدة الكائنات الحية جميعها .. وأنه لا يفصل بين عالم الحيوان والنبات والجماد إلا وحدة انقلابية دقيقة .. وان هناك حلقات تصل بين أرقى النبات وأدنى الحيوان وبين أدنى الحيوان وأرقاه .. وأن الحكمة الالهية لم تعط الحيوان عضواً لا يحتاج إليه فى وقت جلب المنفعة أو دفع المضرة .. وبمثل هذا الفكر كانت نظرية النشوء والارتقاء التى نادى بها داروين والتى زعم فيها أن الانسان من فصيلة القرد .

ويوضح ابن مسكويه الفيلسوف والعالم الاسلامى هذا الموضوع بأكثر من ذلك بحثاً واستقصاء .. فيبدأ بالنباتات التى لا تحتاج إلى بذور لتنبت والتى لا تمتاز عن الجماد إلا بما أسماه «أثر النفس» أى الحياة .. ثم يتدرج مرتبة بعد أخرى حتى يصل إلى الأشجار الكريمة .. ثم يتحدث عن نشوء الحيوان .. ثم يصير من هذه المرتبة إلى مرتبة الحيوان . الذى

يحاكي الإنسان من تلقاء نفسه ويشبهه من غير تعليم كالقرود وما أشبهها .. وتبلغ من ذكائها أن تستكفي من التأديب بأن ترى الإنسان يعمل عملا فتعمل مثله من غير أن تحوج الإنسان إلى تعب بها ورياضة لها .. وهذه غاية أفق الحيوان التي تجاوزها .. وقبل زيادة يسيرة خرج بها من عن أفقه وصار في أفق الإنسان الذي يقبل العقل والتمييز والنطق والآلات التي يستعملها والصور التي تلائمها .. فإذا بلغ هذه الرتبة تحرك إلى المعارف واشتاق إلى العلوم وحدثت له قوى وملكات ومواهب من الله عز وجل » .

ووقف العالم الفرنسي كوفيير موقفاً مضاداً لأبحاث داروين وقرر أن كل نوع من الأحياء خلق مستقلا .. وأن الأنواع القديمة كانت تبيد ويحل محلها خلق جديد أرقى .. وإذا سئل كيف نفسر اختلاف الأحياء القديمة التي كانت تعيش في العصور الجيولوجية السابقة عن الأحياء الأحدث قال بكل بساطة أن كارثة أو سلسلة من الكوارث كانت تحل بالأرض

فتبيد الخلق القديم لكي يحل محلها خلق جديد وهكذا عصراً بعد عصر .

وكان العالم الأمريكي كرب دور كبير في البحث عن أصل الإنسان فتوصل إلى أن الإنسان أقرب مايكون إلى الحيوانات الثديية التي سبقته وأنه يعتبر أرقاها بما امتاز به من ذكاء وقوة في التفكير الذي مصدره العقل .. وكل هؤلاء لم يصلوا إلى حقيقة أصل الإنسان .. وليس سوى الكتب المقدسة وهي كلام الله العليم الخبير والتي تحكي قصة الخلق وخلق آدم .

يقول الله تعالى: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » (١٢ - ١٤ - سورة المؤمنون) .

وهذا ما توصل إليه العلم الحديث بشأن خلق الإنسان من طين .. إذ أنه بتحليل رفات الآدمي بعد موته وجد أنها

تحتوى على جميع عناصر الطين التى أشار القرآن الكريم إلى أنها عناصر تكوينه ..

وهذا القول الكريم سابق لأقوال العلماء والمحدثين بثلاثة عشر قرناً .. مما يجعلنا نقف عند حدنا مبهورى العقل خاشعى الفكر لما يحدثنا به الله فى كتابه عن خلقه صغيره وكبيره وعن ملكوت السموات والأرض التى عاش الإنسان قروناً عديدة منذ خلقه الله وسخر له الكائنات يفكر ويتصور بفكره المحدود وعلمه القليل أنه يستطيع أن يحيط بهذا الكون الهائل .. وما هو بمستطيع إلا بما شاء الله .

ولنمض سويا إلى قصة استخلاف آدم فى الأرض .

الكائن المستخلف فى الأرض

استكمالا لما كتبناه عن خلق آدم وتوضيحاً لسر تمييزه عن سائر الحيوانات وأنه الكائن الأمثل بينها لا نجد أمامنا سوى الفكر المحدود هو الذى نستعين به على تحقيق ذلك.. والفكر منذ القدم وهو دائب البحث عن هذه الحقيقة ولم يستطع أن يعرف شيئاً عن نفسه إلا عن طريق الرسالات السماوية التى لم يصل قبلها مفكرون إلى مستوى يوصل لهذه الغاية سواء بالفلسفة أو بالعلم والذى يدلنا عليه تاريخ الإنسانية . . إذ أن الفلسفات بدأ ظهورها بعد ظهور الديانات بقرون عدة وأن العلم الحديث ظهر بعد ذلك بكثير .

ويزعم الماديون أن الإنسان هو الكائن الأعلى فى هذا الوجود لما يمتاز به من التفكير الذى ينتهى إلى أعمال ملموسة غاية فى الدقة والضخامة والإعجاز حتى لقد توصل إلى غزو الفضاء وقد يصل إلى سكن الكواكب وربما تصوروا أنها السماء التي تحدثت عنها الكتب المقدسة .

ولو كان الإنسان هو الكائن الأعلى لتفرد بالبقاء الأبدى دون سائر المخلوقات ولهيمن على الكون المنظور وغير المنظور هيمنة الإله الذى تحدث بكلماته فى الكتب المقدسة عما خلق وعن ملكوته الذى لا يعلم مداه إلا هو .. والإنسان لا يزيد عن كائن حى خلقه الله وكرمه على سائر مخلوقاته .

ولم تستطع الفلسفات ولا العلوم بأنواعها المتباينة أن تثبت عكس ذلك كما أوضحنا فى الفصول السابقة ..

والإنسان لم يدرك كنه الكثير مما يحيط به من مخلوقات ولا الحكمة فى وجودها أو وجوده هو .. وما عرفه عنها وعن نفسه استغرق فى البحث عنه ملايين السنين .. وربما كان أول ما عرف طعامه وشرابه .. فلم يدرك عن البحر أكثر من أنه يمده بالأسماك التى يتغذى بها وكذلك الأشجار ذات الثمار .

وإن كان إنسان هذا العصر قد تغير عن إنسان العصور السحيقة فعرف كثيراً من أسرار وحكمة بعض المخلوقات بعد استخدامه لها فى وسائل معيشته فإنه لم يعرف الكثير منها

إلا بعد ظهور الإسلام الذى أوضح كتابه المعجزة الغاية من خلق هذه المخلوقات .. فقال جل شأنه : « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون» (١٤ ـ سورة النحل).

وقوله تعالى : « قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار . أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابيا .. ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله .. كذلك يضرب الله الحق والباطل .. فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض .. كذلك يضرب الله الأمثال » . (١٦ ١٧ ـ الرعد)

ولهذا فلا داعي للاستطراد وليس أمامنا إلا أن ندخل إلى الحقيقة من بابها الكبير ..

يقول الله تبارك وتعالى مخاطباً ملائكته :

« وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين . فإذا

ســـويته ونفخت فيــه من روحي فقعوا له ساجدين » .

(٧١/٧٢ - سورة ص) .

ولقد كان لخلق آدم من طين فلسفة تعلم الإنسان صنع ما يحتاج اليه فى حياته الدنيـــا من أشياء وتكوينها طبقاً لمواصفات يتصورها ذهنه لهذا الذى سيصنعه . . كما أشارت الآية الـكريمة « خلق الإنسان من صلصال كالفخار » . . فكان خلقه على الصورة التى وجد عليها بعد ذلك حتى بعد أن أصبح ينشأ من نطفة فى أطوار عدة إلى أن يصبح بشراً سويا كما قال الله تعالى : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين » .

وسمي آدم بخلقه من أديم الأرض ولـكنه لم يمنح كمال التكوين إلا بعد أن نفخ الله فيه من روحه الدالة على قدرته جل شأنه والتى ما تزال من غوامض الأسرار أمام العقل الإنسانى مهما أوتى من علم ومعرفة .. وصدق الله العظيم إذ يقول : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما

أوتيتم من العلم إلا قليلا » . (٨٥ - الإسراء) .

وهذا يعنى أن الإنسان نوع بعينه كرمه الله على سائر المخلوقات التى سبقته والتي تليه بما أتاه من العلم حتى أن الله سبحانه وتعالى أمر الملائكة وهم أشرف خلقه أن يسجدوا له وقد قرر ذلك التقدير والتكريم بقوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » . وقوله : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . (٧٠ - الإسراء) وهذا ينفى ما ادعاه داروين في أن الإنسان من فصيلة القردة والذي أكده هو بنفسه عندما اعترف بوجود حلقة مفقودة بين القرد والإنسان وهكذا حق للانسان أن يتربع على عرش هذا الكوكب سيداً لسائر ما فيه من مخلوقات . . وقد نص القرآن الكريم على ذلك بقوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم

مالا تعلمون » . (٣٠ - سورة البقرة) .

وواضح من ظاهر الآية اعتراض الملائكة على وجود خليفة لله فى الأرض وهذا يستوعب امرين . . أحدهما أن الله أعطى مخلوقاته حرية التفكير والتعبير . . وثانيهما أن جميع مخلوقاته لم تؤتى من العلم إلا بالقدر الذى تحتاج اليه فى حياتها .

وندرك ذلك من قوله جل شأنه : «إنى أعلم مالا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبؤنى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون » . (٣٠/٣٣ - سورة البقرة) .

ويشدنا موقف ابليس من رفضه الاذعان لأمر الله بالسجود

لآدم والذى يفهم منه أن ما حدى بإبليس إلى هذا العصيان إنما هو تكبره على من اعتبره دونه واستخفافه به حين قال: « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » .

وهذا أيضاً يعرفنا بأن الجن كانوا يعمرون الأرض قبل الإنس وأنهم لم يكونوا اهلا لاستخلاف الله لهم فى الأرض وكأن حوار الملائكة مع الله بقولهم: « اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . » إنما كان نتيجة فعلية لمسوها فى الجن من قبل . . كما يشير القرآن الكريم إلى تسلسل خلق الجن والإنس واستعمارهم الأرض بقوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . . ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » .

وكانت الحكمة من الحوار الذى أجراه الله مع ملائكته بشأن استخلاف آدم الأرض هى اظهار موقف الإنسان بعد ذلك من قضية القضاء والقدر . . وهل هو مسير أو مخير ؟ . .

ففي الأولى ان الله الذى خلق السماوات والأرض وما فيهن من عوالم ومخلوقات هو الذى قضى وقدر ذلك .. وهو عندما أراد اقتضت حكمته أن يجعل فى الأرض خليفة له من صنف جديد من المخلوقات لم يكن ليأخذ رأى ملائكته حاشى لله ولا أن يشرك معه في ملكه أحدا .. ولنقرأ معاً قوله جل وعلا فى هذا الشأن : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » .

ولئن كانت الملائكة قد اعترضت على استخلاف آدم الأرض فإنما كان ذلك لحكمة بالغة هى أن يقفوا على حقيقة أمرهم وهى انهم لا يعلمون من امر الله إلا ما يبلغون به كما ورد فى الحوار رداً على قولهم : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى اعلم مالا تعلمون » .

وأما عن الأسماء التي علمها الله آدم فلا يعلم حقيقتها إلا الله وان آثارها لا تزال باقية في عقب آدم حتى تقوم الساعة

فما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه ولا مخلوق يعيش فى البحر إلا ونسل آدم ينطق باسمه وكأنه يعرفه من قديم الازل .

وهذا ما كان ينبغى أن يسلح به آدم ليؤدى حق الخلافة فيما استخلف .. وستعرف فيما يلى على أكثر من ذلك مما آتاه الله آدم ونسله من علم ومعرفة .

✿ ✿

العلم توجيه إلهى

فيما أسلفنا تبين أن الإنسان هو الحيوان العاقـــل الذى يستطيع أن يسخر ماحوله ويسوس غـــيره من المخلوقات، بما امتاز به من عقل مفكر منطلق إلى غيره من الكائنات يفحصها ويفيد منها .

ومما سبق أن أوضحناه فى قضية الالوهيـــة والخلق والمعبودات وجدنا أن الإنسان كان دائم التطلـع إلى معرفة هذا الكون الهائل ومايكتنفه من اسرار وما وراءه من قوة دافعة مؤثرة فى كل شىء فيه بما أودعه الله من علم كان العقل هو الجهاز الذى نلقاه ويصدره سواء كان إلهاما أو وحياً .. موروثاً أو مكتسباً .. تلقينا أو تحصيلا . .

والعلم يأتى نتيجة للتفكير فيما يعأمله الإنسان أو يتخيله .. وبذلك يكون التفكير الإنسانى مزيجا حدس ومنطق .. من من الهام وتأمل فالكون فى الواقع مزيج من غموض ووضوح فالوضـوح يلتئم بالمنطق والغموض يتضـح بالالهام . . ولذا

فالإنسان يفكر فيما يراه وفيما لايراه . . فيصل إلى مايراه بما يتصوره مناسبا للشكل والمضمون . . واما مالا يــراه فيلقنه بالالهام .

ومن الأمثلة الدالة على الإلهـام مانشاهده فى كوننا الذى يعج بعجائب المخلوقات للحيوانات لغة تتفاهم بها . . وكذلك الطيور والحشرات والاسماك فى البحار حتى لنرى النمل وهو في سبيل تحصيل قوته فى الصيف لتخزينه للبيات الشتوي الذى عنمه المطر والبرد من الخروج من بيوته للقيام بهـذه المهمة الحيوية التي تتضمن الحياة أو المـوت بالنسبة له . . وكذلك نرى اسراب الطيور وهى تهاجر من بلد في اقصى الشمال إلى أخرى فى أقصى الجنوب وبالعكس وقد انتظمهـا موكب منظم تحت قيادة احدها . . وبالمثل اسراب الأسماك التى تجوب البحار من منطقة إلى أخرى سعيا وراء طعامها . . ولعـل فى النحل أكبر دليل على هذا العلم الملهم الذى به نظمت مملكتها اروع تنظيم وانشأت وطنها فى ابدع صورة واجمل تنسيق . . وإلى هذا يشير القرآن الكريم بقوله تعالى :

« واوحى ربك إلى النحل ان اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس .. إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون »

(٦٨ / ٦٩ - سورة النحل)

وعندما اتجه العلم الحديث إلى البحث فيما يشير اليه قوله تعالى « فيه شفاء للناس » وجد العلماء عجباً .. ففى عسل النحل أو غذاء الملكة ما يحيى الخلايا الميته ويعيد الشباب بعد الكهولة .. وفى العسل بصفة عامة شفاء واى شفاء لبعض الادواء التى لم يجدوا لها بديلا عنه ..

أليس من حقنا أن نطالب من أقتنع بهذا أن يؤمن بما جاء فى هاتين الآيتين من أن ما أوتيه النحل انما هو من علم الله والهامه ..

واذا اردنا أن نستعرض العلم كما اسلفنا فلنقرأ معا مايدلنا بادىء ذى بدء ان العلم كله من عند الله ..

قال تعالى : « علم الإنسان مالم يعلم » (٥ - سورة العلق)
وانطلاقا من هذا القول الكريم نجد أن العلم مرده إلى الله
الذى يقول :

« وسع ربى كل شىء علما افلا تتذكرون »

(٨٠ - سورة الانعام)

وقوله جل وعلا « انى اعلم غيب السموات والأرض
واعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون » (٣٣ - سورة البقرة)

ومن العلم الملهم أوالموروث بالنسبة للانسان يقول الله تعالى :
« الم تران الله يسبح له من فى السموات والارض والطير
صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون »

(٤١ - سورة النور)

ومن العلم المتحصل ما أشار اليه الله تعالى فى قوله :
« قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف واخيه إذ انتم جاهلون »

(٨٩ - سورة يوسف)

وهى مواجهة صريحة بشىء قد حدث ويعلمونه .

ومن العلم المنزل ماجاء في قوله تعالى بشأن السحر :

« وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ومايعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر .. فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه وماهم بضارين به من احد إلا بإذن الله » (١٠٢ ـ سورة البقرة)

وهو فى هذه الحالة علم تلقين وتحصيل .

ويرينا الخالق العليم الخبير كيف يسلب نعمة العلم ممن يشاء فلا يستطيع مخلوق ان يسترده مهما أوتي من قدرة . . يقول جل شأنه « ومنهم من يرد إلى ارذل العمر لكى لايعلم من بعد علم شيئا » (٥ ـ سورة الحج)

وانطلاقا من هذا فنحن نقول بمفهوم الايمان الذى توصلنا به إلى حقيقة الألوهية وما أوجدته من مخلوقات ومن كونية وما منحته هذه المخلوقات من أسرار وطبائع وغرائز آن العلم منة من من الله منحها الانسان لتكون سلاحه في ادارة هذه الأرض التى استخلف فيها .. ونسأل الماديين الذين يقفون

على النقيض من ذلك هل فى استطاعتهم وقد توصلوا إلى بعض مكونات الحياة أن يخلقوا شيئا مثلما خلق الله وإن كانوا قد عرفوا وتوصلوا إلى مكونات الخلية الحية التى هى اللبنة الاولى فى بناء كل كائن حى فهل يستطيعون أن ينشئوا هذه الخليـة ثم يكونوا من بعضها مخلوقات يشكلونها اشكالا متباينة من حيوانات أو طيور أو هوام ؟ ..

إنهم ولاشك عاجزون كل العجز عن الاجابة على هذا السؤال برغم اهتدائهم إلى معجزات العلم التى ربطتهم بأسباب السماء وجعلتهم يطوون الارض من اقصاها إلى اقصاها ويمتطون الهواء إلى طبقات الجو العليا ويسيرون فى الفضاء سيرهم على الارض والتى نوه القرآن بها فى قوله تعالى :

« يامعشر الجن والأنس إن استطعتم إن تنفذوا من اقطار السموات والارض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان »

(الرحمن)

وقوله : فلا اقسم بالشفق .. والليل وما وسق .. والقمر إذا اتسق لتركبن طبقا عن طبق » (١٦/١٩ - سورة الانشقاق)

وأخيراً يتحدى الله هؤلاء الضالين بقوله جـــل شأنه :

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقـوا ذبابا ولو اجتمعوا له . وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه .. ضعف الطالب والمطلوب »

إن الانسان قد يستطيع أن يرمم هـذه الحشرة الدنيئة ويلونها بألوان تقارب الوانها بعد أن يراها بالمجهر ولكنه لن يستطيع أن ينفخ فيها من روحه لتتحرك وتؤدى وظيفتها . . وكفى بكل مكابر ان يقف عند هذا حسيراً .

وفى الكتاب القادم نوضح بعض الحقائق العلمية تفصيليا ان شاء الله .



الكائن الأعلى والوجود

ان التطور الحضاري الذى وصل اليه العالم الآن لم يبدأ من الصفر كما ذكر المفكرون .. ولكن الحضارة وجدت مع هذا الكون وفوق كوكبنا الذى نعمره ربما منذ ملايين السنين كما يخبرنا علماء الآثار لدى اكتشافاتهم المستمرة سواء كانت عن طريق التنقيب والبحث أو جاءت عفوية نتيجة للتغييرات الجيولوجية المستمرة والمفاجئة .. وان الانسان القديم الذى اعتبرناه أول بان للحضارة فى وديان الانهار لم يبنها دون فكر وانما أنشأها على نمط سابق . فالاكواخ والبيوت التى أقامها مأوى له هو تطوير المغارات والكهوف التى وجدت فى الطبيعة واتخذها مأوى له قبل نزوحه إلى وديان الانهار .. والانهار وهى مسرح الحضارة الاولى كانت من صنع الله الذى سخرها كقوله .

« الله الذى خلق السماوات والأرض وانزل من السماء ماء

وأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره وسخر لكم الانهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ماسألتموه وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها .. ان الإنسان لظلوم كفار »

(٣٤/٣٢ ـ سورة ابراهيم)

كذلك فإن المعابد كانت وليـــدة التفكير فى خالق هذا الوجود أو الكائن الأعلى .. وهو الله .

ومن هنا فإن نظرة منصفة خاليـة من أى لوثة فكرية إلى مافى الكون من بدائع الصنع التى يتسم بهـــا كالبحار وما احتوته من غرائب . والسماء وجمال زرقتها وشفافيتها ومازينت به من كواكب ونجوم .. وكالجبال وشموخها وجمال سفوحها إذا ما اكتست بالخضرة والازهار والورود وضفاف الانهـار إذا ما فرشت بالبسط السندسية وزركشت بابدع الألوان .. والحدائق الغناء .. والأشجار العملاقة التى تشبه المظـلات تارة أو المآذن السامقة تارة أخرى . . كل تلك كانت نماذجا احتذاها الإنسان فى صنع حضارته .

وعلى هذا كانت الحضارة املاء مما خلق الله على الفكر الانسانى واعمالا للعقل فى صنعها .. فإذا كان « كارل ماركس » يقصد بقوله « عقــل الإنسان ليس هــو الذى يخلق له طراز معيشته .. وإنما طراز المعيشة هو الذى يخلق للانسان عقله وفكره » ما وضحته فكان أجدر به ان ينوه بالخالق الأول لكل شيء فى هذا الوجود بما فيه العقل البشرى الذى استنبط به هذا التفكير .. ولو عرف ان الإنسان لا يميزه عن سائر الحيوانات إلا العقل الذى به اهتدى إلى هــــذا التفكير هو وأمثاله لآمن بما قال الله عن العقــــل وانطق به سيد الخلق محمدا صلى الله عليه وسلم بالحديث القدسى الذى يصف العقل بأنه أعظم ماخلق الله إذ به يعطى وبه يأخذ . ولو قرأ قول الله تعالى : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً .. أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين . وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله .. ويجعــــل الرجس على الذين لا يعقلون . قل انظـــروا ماذا فى السموات والأرض .. وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون . فهل ينتظرون

إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم .. قل فا نتظروا إنى معكم من المنتظرين . ثم ننجى رسلنا والذين آمنو .. كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين * قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا اعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن اعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت ان اكون من المؤمنين * وان اقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين * ولا تدع من دون الله ما لاينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك اذا من الظالمين » (٩٩/١٠٦ - سورة يونس)

لما ادعي ما ادعاه من باطل ولا انكر خالق هذا الوجود.. ولعرف أن الكون مسير بحكمة أزلية لايعلمها إلا الله الذي سخر كل مافيه كما جاء في قوله تعالى : « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى .. ذلكم الله فأنى تؤفكون * فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا .. ذلك تقدير العزيز العليم * وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد

فصلنا الآيات لقوم يعلمون * وهـــو الذي انشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون * وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانيـــة وجنات من اعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا اثمر وينعه .. إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » (٩٥/٩٩ ـ سورة الأنعام)

ولنسبوا كل شيء فى هـذا الوجود إلى خالقه كما ينسبون كل فكر إلى مفكريه وكل صنعة إلى صانعها .. ولكنها لاتعمى الابصار .. ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

وهذا الفكر المـــادى يسير بأتباعه الامعات فى دروب سحيقة لا تفضى إلى غاية تفيد منها البشرية كما يدعون .

وان الحضارة منذ نشأتها الاولى قامت على حرية الفكر والرأى .. حرية الحياة للانسان العاقـــل المدرك لما ينفعه ويضره .. الحرية التى عرف بها كيف يبنى الحيـاة ويسخر

ما أعطاه الله من عناصر ومــواد ضرورية لوجوده . .
فكانت الحضارة ان تحافظ على مياه الأنهار بالسدود والخزانات
وأن ينظم توزيعها وان يصلــح الأرض ويستغلها احسن
استغلال وان يقيم المنشآت العمرانية لسائر الأعمال .. وان
يتبادل المنافع مع غيره بضوابط السلوك والقيم والأخلاق .

وليست الحرية إذا فى حاجة إلى قوانين تحميها اكثر من
ذلك .. كما انها ليست كما يتصورها الفكر المادى ضمان لقمــة
العيش .. إذ ان لقمة العيش كفلها الله لكل كائن حى كما
نرى فى واقعنا الذى نعيشه والذى يطابق قول الحـق تبارك
وتعالى : « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم
مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين » .

وقوله تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا
فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » (سورة تبارك)

والحرية الحقيقية هى الكرامة الإنسانية التى يتمتـع بهـا
الإنسان على سائر المخلوقات والتى جاء بها الإسلام « ولقــــد

كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (سورة الإسراء).

ولو كانت الحرية كما يتصورون لكان السجين حرا إذ أنه يجد الطعام والشراب فى سجنه .

وهكذا سبق الاسلام جميع النظريات إلى مفهوم الحرية الجديرة بالبقاء . والحضارة التى حررت العرب من البداوة وانطلقت بهم إلى آفاق العزة والكرامة والسيادة والرفعة ووضعتهم فى مكان الصدارة بين الأمم .. تلك الحضارة التى خلدها التاريخ فى الشرق والغرب وما تزال باقية يغترف العالم من معينها .. ويقطفون من ثمارها .

ومن هنا فإن البناء الحضارى لا يقوم ماديا فحسب وإنما يكون ماديا ومعنويا معا .. فالحضارة العمرانية إذا لم تؤنسها الحضارة الفكرية فهى إلى زوال .. ومعنى هذا أن الحضارة ما هى إلا نتاج للخصائص الإنسانية الفكرية والوجدانية والسلوكية .. هذه الخصائص التى أوجدت التآلف والتعاون بين بنى الإنسان وقضت على مجتمع الغاب الذى اضطر اليه

الإنسان في بدائيته ثم أورثه أبنـــاءه . . وظل ذلك ديدن الجماعات في المجتمع القبلي ولم ينتهي إلا بعد أن تحضر الإنسان وأقام الحـكومات ووضع القوانين التي كان لها الهيمنة على كافة شئون الحياة . . وكان ذلك أول معلم من معالم التحضر والتمـدن الذي تحقق في ظله انطلاق الفكر الإنساني الخلاق لاستكمال جوانب الحضارة بالفكر الديني والفنون والعـلوم والتربية والتعليم . .

ومن أجل ذلك فقد جعل الإسلام كتاب الحضـــارة مفتوحاً ليسجل فيه الإنسان ما يجريه الله على يديه من منافع للناس فتبارك الله القائل : « ويخلق مالا تعلمون »

ومن هنا يمكننا أن نقول بأن الحضارة الحديثة لم تكن إلا حلقة في سلسلة الحضارات التي سبقتها . . سواء تلك التي انشأت على يديها الميكانيكيات أو ولد في أحضانها البخار أو اكتشف بين يديها المارد العملاق المسمى بالكهرباء . . وكل تلك المخترعات أسهمت في توفير وســـائل المعيشة للانسان وتيسير سبل الحياة الكريمة له أيضاً .

وستظل الحضارة هدف الإنسان الذى تخلى عن أنانيته وعرف حقيقة رسالته السامية وهى التعايش مع اخوانه فى الإنسانية .. وإذا كان هذا هو الهدف والغاية فما أيسر الطريق اليهما .. وما أجدر أن نقرأ معاً قول الله تبارك وتعالى : « قال فمن ربكما ياموسى * قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى * قال فما بال القرون الأولى * قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى * الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى * كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى » . (٤٩ / ٥٤ - سورة طه) ثم نتدارس بلا تعصب كافة المذاهب الفكرية التى جاءت وليدة البحث عن كيفية ضمان حقوق الإنسان المشروعة فى كل وقت ومكان وتحت أى ظروف .

مما عرفناه تاريخياً أن حقوق الإنسان فى العصور الوسطى كانت تتباين تبعاً لعبابن الوضع الاجتماعى للفرد حتى لقد وضعت نظريات وقوانين جائرة بالنسبة للسواد الأعظم من

الشعب .. ثم تطورت تلك القوانين تدريجياً حتى توصلت الأمم المتحدة إلى وضع صيغة نهائية لضمان حقوق الإنسان .. واشتركت في وضع هذه الصيغة كافة الدول على اختلاف مذاهبها الاشتراكية والرأسمالية وغيرها .. فهل أتوا بجديد عما دعا إليه الدين . وبالذات الاسلام . . لا بالنسبة لحقوق الفرد فحسب .. بل وأيضاً بالنسبة لحقوق الدول مجتمعة .. فإنه كما ألقى مسئولية ضمان الحـــرية الشخصية على عاتق الحاكم .. « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » .

فإنه أمر الجماعة الانسانية بحماية الدول من بعضها ..

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما .. فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله .. فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا .. إن الله يحب المقسطين » .

بل وعرف الناس جميعاً أنهم من أصل واحد وجب أن تتغلب النزعة الانسانية على التعصب القبلي .

يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وقبل ذلك وبعده ظهرت مذاهب وأفكار إصلاحية للاخذ بيد المجتمعات المتخلفة ـ كما أسلفنا ـ وكان التعصب ظاهراً بين أبناء كل أمه اعتنقت مذهباً ما .. سواء كان نابعاً منها أو مستوزداً من غيرها .. ولكنه لم يلبث أن طمسته الأيام عند ظهور تيار فكرى جديد ينافسه أو حتى يعتبر تصديقاً له إذ يقوم هذا المذهب الجديد على أنقاضه .

ومن خطل الرأى أن تولى أى أمه مفكريها الاعجاب وتغمط غيرهم ممن سبقوهم وكان لهم فضل كبير عليهم بما قدموه للانسانية قبلهم من فكر وعلم كان معينهم الذى نهلوا منه واغترفوا .. فيضعوهم موضع الشاعر العربى أبو العلاء المعرى الذى اغتر بفكره وعلمه فقال .

وإنى وإن كنت الأخير زمانه

لآت بما لم تستطعه الأوائل

فإن لكل جيل سبق بصمات في أفكار الجيل الذى يليه ..
وهكذا الحياة دوميك .. فالفكر الإنسانى أشبه بالزرع يغرس فينمو ويثمر ثم يحصد ليغرس غيره فينمو ويثمر ثم يحصد وهلم جره ..

ومن يتتبع خطى الحضارة يجد أنها لم تبدأ في هذا القرن العشرين .. وإنما قبل ذلك بقرون عدة .. وما انتهت إليه اليوم ان كنا نراه ازدهاراً لها .. فذلك فى نظرنا .. وغداً قد تزدهر الحضارة أكثر فأكثر على يد من يخلفوننا .. وعندئذ ينظرون إلى حضارتهم كنظرتنا إلى حضارتنا . وقد يكون انسان الغد أسمى تفكيراً وأرق عاطفة وأرقى وجداناً فيهيء الحياة الطيبة له ولغيره دون استخدام العنف الذى ترك بصماته فى مبادىء نهضات هذا العصر وثوراته من أجل حياة أفضل يدعى فيها أنه يسعى لتحقيق الحرية والديمقراطية والوحدة الانسانية كما أراد أفلاطون الاغريقى فى العصور القديمة أن يصنع ذلك في جمهوريته .. وكما شاء الفارابى .. الفيلسوف المسلم .. أن يحقق ذلك فى مدينته الفاضلة فباءا بالفشل ..

وهـؤلاء سبقهم مفكرون وفلاسفة ومصلحون وحضارات .

فالحضارة اليونانية أفادت من الحضارة المصرية القديمة . . والعرب أفادوا من الحضارة اليونانية . . ثم أمدوها مرة أخرى هي وأوروبا بنتاجهم الحضارى الرائع الذى كان كالبحر الزاخر غمر الوجود بفضله واعترف به كل مفكر منصف فيما تلاهم من عصور .

فمنذ أكثر من ألف سنة على ظهور الاسلام طفر المسلمون طفرة علمية جبارة وهم أبناء الصحراء الذين لم يأتوا قسطا من العلم والثقافة قبل ذلك . . فأثروا الحياة بالفكر الانسانى الخلاق وبالعلوم الإنسانية التطبيقية كالطب والهندسة والفلك والكيمياء وغيرها من العلوم التي نهضت بالحياة في شتى مناحيها والتى اعتمد الغرب نهضته الحضارية بعد ذلك فأشرق بها فجر مجتمعهم الجديد بعد ظلام خيم عليهم آلاف السنين . . ولا ينكر العالم كله فضل هؤلاء العرب المسلمين على العالم . . إذ

أن حضـارتهم ما تزال آثارها باقية تومىء إليهم بالإجـلال والإعظام والتقدير والاعتراف لهم بالسبق في ميادين التقدم في إرساء قواعد كافة حضـــارات الأمم التي تلتهم وأخذت أصولها عن حضارتهم .

وكنماذج لهذا التقدم العلمي نذكر أنه في القرن الخامس الهجري ألف أبو القاسم كتابه الخالد في الجراحـة . . وهو أول مرجع لها تقريبـاً . . وعالج البيروني دوران الأرض حول الشمس . . واكتشف ابن الهيثم قوانين الابصار . . كما كان له السبق في الشروع في اختراع أجهزة التصوير . . كما ظهر في هذا العـام الرئيس ابن سيناء الذي طبقت شهرته الآفاق في مناحي العلم والفكر وهو لم يتجاوز العشرين ربيعاً بكثير « وغيرهم من علمـــاء المسلمين الذين أرسوا قواعد الحضـارة الروحية والمادية التي استمدوها من علوم القرآن الكريم والفكر الاسلامي » هذا الفكر المتطور الخلاق الذي لا ينضب معينه ولا تذبل ثماره والذي ما ظهرت نهضات ولا لمع بريق مذهب اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي إلا وكان

انعكاساً لبعض أشعة شمسه التي تجرى لمستقر لها وان تنطفىء جذوتها لأنها من نور الله القائل : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » .

والشعب المتمسك بقيمه الحضارية وما أوتيه من مبادىء سامية تعتبر نبراساً لحياة انسانية قوامها العدل والمساواة يستطيع أن يحقق العيش الكريم له ولغيره من شعوب الأرض.. فهو صاحب قدرة ومسئولية .. وليست الثورات الدموية ولا الانفعالات المجنونة الطائشة التى لا تلبث أن تستبدل الحرية بالقيود والأغلال والديمقراطية بالبغى والاستبداد ..

ونظرة مقارنة بين ما صنعته الشعوب الحرة من حضارات وما تقيمه الشعوب المكبلة من نصب تذكارية لضحايا الظلم والبطش ترينا الفرق الشاسع بين حياة تزخر بالخير وترفل فى الأمن والسيادة وأخرى تعتبر فى غياهب الظلمات .

ونظرة أخرى إلى خريطة العالم فى الشرق والغرب توضح لنا أكثر وأكثر أن الشعوب التي بنت نفسها بنفسها دون

أوصياء عليها بلغت درجة من التقدم الانسانى اجتماعيـــا واقتصاديا وسياسياً مالم يبلغه نظراؤها بحيث أصبحت تستطيع أن تمد يد العون لغيرها من الدول المتخلفة لتلحق بركب الأمم الناهضة .. عكس تلك التى تسعى وراء امتصاص خيرات الأمم النامية لتسد حاجتها دونما وازع من ضمير أو خلق .. وفاقد الشيء لا يعطيه ..

ولهـذا فإن النظريات والمذاهب الاصلاحية التى غزت الشرق الأقصى وأوروبا الوسطى وافدة عليهـا من أوروبا الشرقية ماهى إلا سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده .

ان الباحث المنصف وراء هـذه النهضات يجد أن النظرية الاسلامية غنية بمقومات الحياة وركائز القوة ودعائم العمران . ولن يبلى صرحها أو يبيد . ولن تغرب شمسها أو تزول .. ذلك لأنها سنة الله فى الأرض . . ولن تجد لسنة الله تبديلا ..

إن الاسلام الذى جاء بتشريع سماوى لا يأتيه الباطل من

بين يديه ولا من خلفه برغم أنه جعـــل لكل شيء ضوابط ومقاييس ونظم قوانين فإنه لم يترك الأمر للنصوص لتنفذه تلقائياً .. وإنما جعل الهيمنة فيه للضمير الحي ..

«إن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن».

وهذا يعني أن آفة المجتمع .. أي مجتمع .. مهما كثر علماؤه ومفكروه وقادته ومصلحوه إنما تأتي بالدرجة الأولى من عدم تقـدير المسئولية والعكس صحيح .. ومثالا على ذلك أن شريعة الاسلام عندما طبقت تطبيقاً صحيحاً في عهد الخلفاء الراشدين حتى عهد خامس الخلفاء عمر بن عبدالعزيز .. أي قرابة ثلاثمائة سنة . . شاع العدل وعم الأمن وفاض الخير دون أي ثورة إصلاحية أو اتجاه إلى نظام جديد يحمي النظام الاسلامي . . أما عنـــدما استورد المسلمون قوانين وشرائع وضعية فقد فتحوا الأبواب والنوافذ لرياح السموم التي تحمل جراثيم الأمراض الاجتماعية الخبيثة التي نخرت في عظام الأمم فأدت بها إلى ضعف انتهـزه دعاة الاصلاح لينصبوا أنفسهم

أطباء على من دوائهم فى أيديهم فكانت المذاهب الاقتصادية من اشتراكية فابية أو تعاونية أو متعارفة.. ولم تستطع جميعها حتى اليوم أن توقف زحف هـذه الأمراض الخطيرة فاتجهت إلى صنع مبيدات للبشرية يتنـافس فيها الشرق والغرب باسم حماية السلام العالمى ..

« كالتى نقضت غزلها من بعد قوة إنكاسا » .

ومن خطل الرأى مرة أخرى الاعتقـاد بأن أدوات التدمير والهـــلاك والخراب يمكن أن تحمى السلام أو تقيم التعايش السلمي بين العالم أو أن الأمم التى تملك هذه الأدوات المدمره تملك أسباب القوة .. لا .. انها تملك أسباب فنائها .. ومثلها فى ذلك مثل قاطع الطريق فإن نهايته محتومة ..

وعلى هذا فإن الأمم لا تفضل بعضها إلا بما تقدمه للانسانية من حضارة نافعة تخـدم الناحية الروحية فيها الناحية الأخرى المادية ويكونان معاً الجناحين اللذين تحلق بهما الانسانية فى سماء الرقى والتقدم ..

فبينما يهـذب الجانب الروحي النفسي البشرية ويقوم سلوكها إلى الأفضـل وينمي فيها روح التآخي والايثار والتعاون لصنع الحياة الحرة الكريمة .. يقوم الجانب المادي بالتفاني في استنباط وسـائل العيش الطيب بتسخير الأرض والفضـاء والبحر لخـدمة الانسانية وهو ما تستهدفه كافة المذاهب الاجتماعية والاقتصـادية في القديم والحديث مهما تغيرت الأسماء والمسميات وتنـوعت أساليب الدعوة إليهـا وتحوير أهدافها ..

وليست الثورات التي هبت في كل بقعة من هذه الأرض إلا انتفاضات لتغيير أسلوب توزيع وسائل العيش بين الناس أخذاً وعطاء تنتهي بعد ذلك إلى ما قد يسمى بالتغيير الثوري وما هو إلا كتغيير جلد الثعبان ليتلاءم مع المرحلة التي يستقبلها من حياته .. إذ أن تغيير القديم من طبيعة الحيـاة دائماً .. والأهم من هذا وذاك أن يكون التغيير للصـالح العام فعلا .. وإذا كان الأمر كذلك فإنه لن يجـد مقاومة مستمرة قياساً

على ما حدث من ثورات على يد أنبيـاء الله ورسله ومن جاء بعدهم من مصلحين . .

وينتهي من هذا إلى أن الثورات التي لم تحقق الغـاية من قيامها إنما تنتظر أفول نجمها لسبب أو لآخر لأنها لم تنشيء حضارة نافعة يهرع إليها النـاس من كل حدب وصوب كما حدث إبان ظهور الإسلام حيث جمع شمل العـرب في أقل من ربع قرن. ثم انطلقت حضارته ترث الامبراطوريات والممالك في الشرق والغرب . . لا بالمؤامرات وحد السيف . . ولكن بالعـلم النافع والحضارة الزاكية التي من أول دعائمها الحرية والعدل والمساواة في الاخوة الانسانية كما ورد في نصوص دستورها وقوانينها :

« إنما المسلمون اخوة »

، « الناس سواسية كأسنان المشط » .

، « لا فضـل لعربي على أعجمي ولا لابيض على أسود إلا بالتقوى » .

الدين قمة الحضارة

لقد ذهب الملحدون إلى القول بأن الدين من اختلاق الإنسان تستتر وراءه المغرضون من أصحاب المصالح والنفوذ ليقهروا به الشعوب ويستغلوهم.. وفاتهم أن الدين جاء ليحقق الاخاء الإنسانى والمساواة والعدالة . . ويقضى على الظلم والتعصب الاعمى لبعض الأجناس دون البعض الآخر كما نص كتاب الإسلام على ذلك بقوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وكما قال رسول الإسلام ونبيه سيدنا محمد ﷺ فى خطبته يوم الوقوف بعرفات فى حجة الوداع : « أيها النـاس . . إن ربكم لواحد وإن أباكم لواحد . . لافضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى . . كلكم لآدم وآدم من تراب » .

وانطلاقا من هـذا التشريع الإلهي يمكننا أن نقول :ـ
عنـدما درج الإنسان على وجه هذه البسيطة بدأ يتعرف على ما حوله من أشياء سواء كانت متحركة أو ساكنة . . وقد عرفنـــا القرآن الكريم بأن الله العليم الخبير قد علم الإنسان مالم يكن يعلم كما جاء في قوله تعالى من سورة البقرة : « وعلم آدم الأسماء كلها » . فظل يجتر ما أودعه الله خزائن فـكره من هذا العـلم فيعرف مسميات الأشياء التي يراها ويتمنى أن يفكر في كنهها وما خلقت من أجله باحثاً فيها عن الخير الذي يفيده ومفكراً كيف يتقي الشر الذي تستوعبه . . وظل كذلك وسر هذه الأشياء مستغلق عليه فراح يبحث عن السر الأكبر وراء هذا الملكوت العظيم وهنـــا بدأت مرحلة الفلسفة التي قضى فيهـا الإنسان ردحاً من الزمان هيأ الله فيهـا للإنسان السبيل إلى معرفته جل شأنه من خلال هذه المخلوقات التي تدل على عظمة الصانع وهـذا الوجود الذي يصور قدرة الواحد مطلق الكمال والوجود جل جلاله .

وبعدها تين المرحلتين جاءت المرحلة الهامة في حيـــاة

الإنسان ألا وهى مرحلة الدين حيث اصطفى الله من آدم وذريته أنبياء ورسل كما قال تبارك وتعالى « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين » . وكما قال : « ولقد أرسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب وقفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم »

ولقد كانت الحضارة القديمة عملا بدائياً إرتكز على الفكر فى طفولته والفطرة فى مهدها حتى نهاية عصر الفلسفة حيث لم يجنى الإنسان من ثمارها إلا النذر اليسير من العلم والمعرفة التى لم تخرج عن دائرة التجارب التى ما تكاد تعرف حتى تظهر تجارب أخرى تلغيها .

وعندما اصطفى الله الإنبياء والرسل أنزل من لدنه العلم الذى لا ينضب معينه والفكر الثابت الذى لا ينسخ إلا بقوانين سماوية . وعلى أساس معين من هذا العلم والفكر تمام بناء الحضارة الشامخ سواء كان مادياً كالعمارة والهندسة والأجهزة والآلات أو روحياً كالمبادىء والقيم وغيرها مما يحقق الأمن

والنظام ويوفر الرفاهية والخير ويقضى على الإثرة والحقد والضغائن مما هيأ للانسان الحيـــاة الكريمة وجعله يستطيع التعرف على الكثير من غوامض هذا الكون . .

فالشريعة اليهودية حققت بالقصـــاص الأمن والعدل واحقاق الحق . . وحققت بالوصايا العشر مالم تحققه القوانين الوضعية التى جاءت فى ظل حكم الاقطاع .

والشريعة المسيحية التى جاءت تكملة للشريعة اليهـودية وتعـديلا لبعض نصوصهـا القاسية إذ دعته إلى المحبـــة والسلام .

ولقـد كانت الشريعة الإسلامية خاتم الشرائع فاشتملت عليهـا وهيمنت على ما جاء فيها من قواعد ونظم وأحـكام وأتت بما تحتاج إليه البشرية لقيام نظام محـكم ثابت لا يتغير فقدمت للانسانية منهج حياة أقامت وتقيم عليه صرح الحضارة الذى يزداد شموخا ورفعة يوماً بعد يوم .

ولنقرأ معـاً التوجيهات الإلهية التى كانت ركائز ثابتة لإقامة حضارة إنسانية ظاهرة .

قال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

« يا داود إن جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » .

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام » .

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم » .

« ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » .

« ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء » .

« وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم » .

« وقلنا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد » .

« ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه .. يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجوابي وقدور راسيات » ..

لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » .

من اشعاعات هذه الآيات الكريمة من قول رب العزة جل شأنه نعرف كيف قامت الحضارة وبلغت قمتها تحت راية الدين حتى ان حضارة الإسلام الزاهرة هي التي كانت بعثاً للحياة وارتقاءاً بها إلى ما وصلت إليه من كشوفات علمية وتسخير

لما اكتشفه هذا الوجود من غوامض سواء كانت تحت الثرى أو فى السموات العلى فتبارك الله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم .

ولعل أول ما تعرف عليه الإنسان من معالم الحضارة من الزراعة الذى اكتشفه نبي الله ادريس عليه السلام وكان يدعى « إخنوخ » باللغة المصرية القديمة . . ولما جاء دور الصناعة كان نبي الله داود وابنه سليمان عليهما السلام أول من أمتهنا هذه الصناعة وتعلماها من توجيهات السماء ضمن قوله تعالى : « ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » .

وهكذا كان الدور الرائد فى الحضارة لهؤلاء لأنبياء الذين بعثوا برسالة الدين .

والحضارة فى بدايتها كانت تقليداً لما رآه الإنسان فى هذا الوجود . . فقد انتقل من الكهوف والمغارات التى سكنها فترة طويلة إلى الأكواخ التى صنعها من القش وأغصان الأشجار

والطين .. أو إلى ما أنشأه من بيـوت من الطوب اللبن أو الاحجار حتى ارتقى بفكره إلى صنع القصور .. وكان لهذا الاستقرار دافعاً له لمعرفة الخالق العظيم وعبادته وإقامة المعابد والهياكل لاداء هذه العبادة فى عصر الفطرة إلى أن بعث الله من بين هؤلاء المفكرين من بنى الإنسان أنبياء ورسل ارتقت بهم الحضـارة طوراً بعد طور حتى بلغت ما بلغته من عظمة وازدهار .. فتحولت المعابد التى كان يدخلها الإنسان راكعاً إلى هياكل وكنائس ومساجد غاية فى الضخامة والشموخ ..

وسبقها علم وثقافة أخذت بيد الإنسان من حيـاة الغاب الى الحيـاة التى نحياها تحت أضواء الحرية والسيادة والـكرامة فكانت النظم العادلة التى حققت الخير والعدل والحب كما قال الفلاسفة ومنهم أرسطو وأفلاطون من فلاسفة اليونان الذين دعا أحدهم الى اقامة الجمهـورية ثم ابن سيناء وابن رشد والفارابى صاحب المدينة الفاضلة وغيرهما من فلاسفة المسلمين الذين أضاء الله بصيرتهم بعلوم القرآن فحققوا للانسانية الخير

على بساط المساواة وتحت أجنحة الرحمة التي أرسل الله بها خاتم النبيين مصداقاً لقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . فجنت البشرية من ثمار حضارة الإسلام ما ترفل فيه من ثياب العزة والكرامة وما تنعم به من ثمار الحرية والإخاء الإنساني والعدل الذي عندما سئل كسرى أنو شروان امبراطور فارس عنه قال انه أساس الملك .. والملك لم يستقر ويحقق أهدافه إلا على ركيزة من شريعة الدين التي هي شريعة الله .

وبهذا بلغت الحضارة قمتها في ظل الدين وكنف الرسالات السماوية .»

خاتمـــة

بعـد هذا العرض الموجز والحـــوار السهل فى تناول الموضـــوع الذى حير الأذهان قبل بعثة خاتم النبيين وإمام المرسلين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام لامندوحة فى أن نختم هذا البحث بإشارة إلى بعض الحقائق العلمية التى تقف إلى جانب الرسالات السماوية مؤيدة ومحققة لقول الله تعـالى :

« سنريهم آياتنـا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبـين لهم أنه الحق » .

لقد حطمت الاكتشافات العلمية نظريات الماديين القائمة على عدم اعترافهم بما لم يروا أو يحسوا .. فإن التنبؤ الرياضى لم يكن قائمـاً على شىء مرئى أو محسوس .. ومع ذلك فإنه توصل بهذا الاستنباط والتنبؤ إلى ما أصبح مرئياً ومحسوساً كما حدث عند ما تنبأ العلم بمنطقة الرياضى بوجود نجم لم يكن مرئياً وتحققت نبوأته بظهور هـذا النجم بعد فترة تماماً كما

حدث عند ما أشارت الارهاصات إلى ظهور نبى أو وقوع حرب أو غير ذلك مما سبقها من دلالات تومىء اليها .

وهكذا يجب أن يعود الإنسان التائه إلى عقله فيهتدى بنور الحقيقة التى أبرزنا كثيراً من الأدلة والبراهين الفلسفية والعلمية والدينية عليها .. والله هو الهادى إلى سواء السبيل .. والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ..

تم بحمد الله

بسم الله الرحمن الرحيم

تقريظ وإيمـــاءة

لمضمون الكتاب ومحتواه ..

بقلم الأستاذ أحمد فوزى الصاوى

١٩٩٠/٧/١٦

« واتقوا الله ويعلمكم الله » . صدق الله العظيم

وبعد ..

أرأيتم إلى غواص قيل له ان درة الدرر تقبع في أعماق إحدى قيعان المحيطات فيغوص إليها دون اسطوانة هواء ثم يطفو ثم يغوص ثم يطفو ليغوص فى دأب ولا يسترد أنفاسه حتى يعثر عليها.

أرأيتم إلى صـــائد أصر على اصطياد طائر محلق فى عنـان السماء فائق فى سرعته متعرج فى طيرانه فيصطاده بيـديه .

أرأيتم إلى مؤمن يخوض وحده غمار معركة لقاء جيش لجب فيسلم له الجيش مقهوراً .

أرأيتم إلى منازل للشيطان فيصمد أمامه متحديا - فيحار فيه الشيطان ويسقط فى يده ويضطر إلى حيله التى تبلبـل الفكر وتأسر العقل وتبلد الحس وتشحن النفس بالهواجس - فيفسد هو للشيطان حيله ويخـــرس له وساوسه ويفحمه إفحاماً ..

إن الغواص والصائد والمؤمن ومنازل الشيطان - هو الأستاذ العالم العامل المفكر المثقف الكاتب الشاعر عبدالله أبو رواش الذى تزود بالتقوى فحفزته على البحث ومهـــدت له السبل ويسرت له العسير وكشفت له الغوامض وأدنت له الحقـائق

وجلتها .. فأهداها أنا بين دفتى كتابه (الكائن الأعلى مطلق الكمال والوجود ـ فى الفلسفة والعلم والدين) .

هـذا ولئن كان هذا الكتاب تدور أبحاثه حول الذات الإلهية أو في مضمونها لتقريبها إلى الافهـام التى تقوم على العقـــل وهو من خلق الله .. وأن العقول فى سذاجتهـا وبساطتها تطالب برؤية الله وكيف؟ .. والعقول محدودة وكل حواسها محدودة .. والله فريد الذات .. مطلق الأبعـاد .. مطلق القدرات .. مطلق الوجود .. مطلق الايجاد ..

هل رأى مزروع زارعـه ؟ ..

هل رأى مصنوع صـانعه ؟ ..

هل سمعت كلمة قائلهـــا ؟ ..

هل أحاطت فـكرة بناقلها ؟

هل قرأت كلمـة كاتبهـا ؟ ..

كيف يتأتى للحـــم وعظـــم ودم ـ ومنها يتـكون

الإنسان ـ أن تفكر .. أن تدبر .. أن ترى .. أن تسمع .. أن تتكلم ! اللحم والعظم والدم كلها جماد .. وإذا فهناك شيء آخر .. انه الروح .. فيها ينتقل اللحم والعظم والدم من عالم الجماد إلى عالم آخر .. إلى عالم الحواس .. عالم الوعي والإدراك والإبصار والسمع والشم والتذوق والإحساس ..

وهل رأى إنسان روحه ؟ ! .. بالقطع لا .. وهل يستطيع انسان أن ينكر وجودها في كيانه ؟ .. لو أنكرها لكذبته من لحودها وبلحودها الأموات . أمن المنطق بعد ذلك أن نسلم بوجود الروح التي لا ترى ؟ ! .. ولا نسلم بوجود مانحها وقابضها ! .

أنسلم بوجود الفعل وننكر وجود الفاعل !. وكيف يستحيل علينا رؤية الروح وهي في جسومنا .. ونحاول أن نري مبدعنا ومبدع الروح ..

إن حدقاتنا إذا استوعبت الله في نطاقها فان يختلف الله عندئذ عن أي شيء يمكن أن نرى .. وبمعنى أوضح يمكن

عندئذ تحديد مواصفات الله.. والله ليس كمثله شيء مما خلق.. إنه وراء كل وراء.. وراء أقصى مدى للسمع.. وأقصى مدى للبصـــر.. وأقصى مدى الادراك.. وأقصى مدى للتخيل.. ثم أنه أقرب من أى قرب..

من حيث أننـا فعل والله فاعل.. والفعل عمل والفاعل عامل.. والفرق بين العمـــل والعامل هو الفرق بين الشيء واللاشيء.. هو الفرق بين قدرة الايجاد والتشكيل ثم قدرة الانهـاء أو التبديل وبين عدم القدرة اطلاقاً.. وتلك هى القاعدة التى تربطنا بالله سبحانه وتعالى.. فكل الكائنات فعل يسير والله وجده هو الفاعل المطلق..

موضوعات الكتاب

مراجع الكتاب

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ الأحاديث القدسية والنبوية .

٣ ـ الكتب المقدسة .

٤ ـ الله ذاتاً وموضوعاً .. الاستاذ عبد الكريم الخطيب جزءان .

٥ ـ الله في الفلسفة والمسيحية .. عوض سمعان .

٦ ـ الماركسية والدين .. د. رشدى فكار .

٧ ـ الله والعلم الحديث .. الاستاذ عبد الرزاق نوفل .

٨ ـ الله والإنسان .

٩ ـ الله في الفطرة آل ياسين

١٠ ـ أصل الإنسان .. د . محمد السيد غلاب .

١١ ـ مشكلة الالوهية .. د. غلاب . .

١٢ ـ نظرات في القرآن .. للامام حسن البنا .

١٣ ـ العقائد الإسلامية .. للشيخ السيد سابق .

١٤ ـ الماركسية والإسلام .. د. مصطفى محمود .

١٥ ـ الله علماً وإلهاماً .. ابراهيم عبد الصبور .

١٦ ـ مكر .. ودين .. عبد الرزاق نوفل .

١٧ ـ جمهورية أفلاطون .. للدكتور عبد الكريم أحمد السكري.

١٨ ـ قادة الفكر .. للدكتور طه حسين.

١٩ ـ الموسوعة العربية الميسرة .

٢٠ ـ فلسفة ابن رشد .

تصويب الخطأ

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
الممتد	الممتنع	أ	١٢
الفضية	القضية	ب	٦
الىلسيه	الفلسفية	١١	٧
كت	كنت	١٢	٣
كـ	كنزا	١٢	٤
محفيا	مخفيا	١٢	٤
مـ	مع	١٢	١٣
الغائبة	الغائية	١٣	٥
البنى	النبي	١٤	١٠
الكومن وجد	الكون موجود	١٧	٣
هذا	هذه	٢٥	١
يرددوها	يردوها	٢٨	٦
والكنها	ولكننا	٣١	١٠
ان واجب الوجرد	إنه واجب الوجود	٣٣	٨، ٩
خير	حيز	٣٩	٣

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
موجودها	موجدها	٥٠	٤
اليـ	اليه	٥١	٣
السماري	السماوى	٥٤	١١
الحلق	الخلق	٥٤	١٤
فانى تؤفكون	لا إله إلا هو فأنى	٥٥	١٠
طرما	طوما	٥٦	٥
وجعلبا	وجعلنا	٥٩	٨
لمحفوطا	بحفوظا	٥٩	١٠
الحيوال	الحيوان	٦٢	٦
اسنقصاة	استقصاء	٦٢	١١
بم	ثم	٦٢	١٤
إنتضت	اقتضت	٧٣	٣
مزيجا جدس	مزيجا من حدس	٧٥	١٣
فالمحيونات	فللحيوانات	٧٦	٥
فا ـ لكى	فاسلكى	٧٧	٢

الخطأ	الصواب	الصفحة	السطر
هـ و	هو	٧٧	١٢
اسهمث	اسهمت	٨٩	٥
ابقاضه	انقاضه	٩٢	٨
دوميك	دواليك	٩٣	٢
الافق	الافاق	٩٥	١١
سمـ ه	شمسه	٩٦	١
تقرب	تغرب	٩٧	١٣
توزع	توزيع	١٠٠	١٠
مع	جمع	١٠١	٦
الماليك	المهالك	١٠١	٧
هاتبق	هايتن	١٠٣	١٦
تمـام	تم	١٠٤	١٣
مكر	فكر	١٢٠	٥

رقم الإيداع ٣٩٩٣ / ٨١


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا الكتاب

لاغنى لكل باحث عما وراء الكائن العام أو ما نسميه الطبيعة عن قراءة كتاب «الكائن الأعلى مطلق الكمال والوجود» الذي يغنيهم عن قراءة واستيعاب الأسفار والموسوعات الكثيرة التي يدور البحث فيها سواء عن طريق الفلسفة أو العلم أو الدين حول هذا الموضوع الشائك سعياً وراء الوصول للحقيقة الكبرى. ونرد على السائلين الذين قد يعترضون على تسمية هذا الكتاب بما ورد في كتاب الوجود العام للعلامة الأستاذ محمود أبو الفيض المنوفي إذ يقول: «إن اجتماع الارادة والوعي والحياة والقدرة في الوجود أمور تنبئنا يقيناً صادقاً بصاحبه البرهان - بوجودها ثم صدورها من كائن - ومبدع أول هو الله وهو الوجود الأزلي الذي تم حقانياً وأزلياً بتلك الخصائص كلها أكثر منها مما ولا يحصر.

دار لوران للطباعة والنشر